

# زهرة الياسمين

بقلم / عفاف سعيد

إلى من يعتقدون أن الخرس هو  
صمت الألسنة عن الكلام  
فليعلموا

أن الخرس الحقيقي هو خرس  
القلوب ..

التي لا تستطيع أن تحب  
أو تعبر عن الحب  
أو تخلص للحب

انتبه وهو يحتسي كوبًا من الشاي فى مكتبه الصغير بوكالة العطارة التى ورثها عن أبيه بالأزهر على أصواتٍ عاليةٍ منها المفهوم ومنها غير المفهوم, لم يُعر اهتمامًا فى بادئ الأمر, ومع ازدياد الأصوات وارتفاعها خرج من مكتبه ليُفاجأ بمشادة كلامية حادة بين إحدى صبياناه وامرأة صغيرة يبدو علي ثيابها السوداء الفقر ورئيس عماله أحمد, يلتف حولهم زبائن الوكالة فى انتظار المنتصر, أسرع الخطى نحوهم ليعلو صوت منعم أكثر عندما رآه

- تلك الفتاة كاذبة يا أحمد, أنا لم اقترب منها ولم أفعل مما تقوله شئ, أنت فقط من تضعني فى رأسك وتريد رحيلي من هنا بأي شكل

لم يتوقع أحمد ذلك الافتراء عليه, لماذا سيريد رحيله أو حتى بقاؤه!! مثله تستوي معه المشاعر, هو يشعر بداخله المظلم منذ فترة لكنه يصبر عليه حتى لا يكون السبب فى قطع رزقه

- ولماذا أرغب فى رحيلك؟ وهل معنى دفاعي عن تلك الفتاة أنني أرغب في إيذائك, أنت من تصر على إيذاء نفسك يا منعم بعدم احترامك لمن حولك, وبتصرفاتك المريبة, وتذكر أنني نبهتك أكثر من مرة لكن تحذيري كجرس يضيع فى فضاء عقلك بلا مجيب

كان الحاج عماد يقف خلف أحمد مباشرة, يستمع لكل ما يقال لكنه لا يفهم سر الشرر الذى ارتفع بتلك النار بينهما

- ما الذى يحدث يا أحمد؟

همّ منعم بالرد إلا أن الحاج عماد أخرسه بحركة من يده

- لم أسألك, سيأتي دورك

ارتبك منعم من الطريقة الجافة التى تعامل بها معه فهمّ أن يفتح شفثيه إلا أن الحاج عماد أعاد عليه الكلام بطريقة أجف من سابقتها, اضطر منعم معها لأغلاق فمه وتنكيس رأسه لأسفل بينما نظرات عينيه المتمررة تدور بين ثلاثتهم, هز عماد رأسه لأحمد ليبدأ الكلام

- تلك الفتاة منذ أن وضعت قدمها في الوكالة ومنعم يلاحقها بنظراته وبعض الهمسات, وهي لحق الله في كل مرة تصده وتحاول اجتنابه لكنه لا يرتجع, ويبدو أنه زاد عن حده تلك المرة فصرخت في وجهه, فلم يخل بل بدأ في الشجار معها

اندهش عماد مما قاله أحمد وبدا على وجهه الوجوم, التفت لمنعم وهو يجول ببصره في وجهه الذي شحب كورقة خريفية من الخوف

- ما معنى أن تلاحق تلك الفتاة أو غيرها بنظراتك وكلامك, هل تقف على ناصية الطريق أم في محل أكل عيش

نطق عماد كلماته الأخيرة بحدة أرعشت من منعم دواخله, يعرفه جيدًا ويعرف شخصيته الجادة, لكنه مع ذلك لن يترك لأحد فرصة اهانتة حتى لو كان على خطأ, من هي ومن أحمد حتى يوقعانه في شرك فقد عمله, فانطلق مهاجمًا بصوت مرتفع

- لم يحدث يا حاج, أحمد هو الذي لا يتحمل وجودي منذ عملت هنا, يريد أن يخلعني من مكاني بأي طريقة, وليس بعيدًا أن يكون قد تأمر مع تلك الفتاة ليضعني في تلك الوشاية

حرك عماد كفيه وهو لا يصدق ما تسمعه آذانه

- أحمد ابن الوكالة, عمره كله قضاه فيها ومن قبله والده, وهو رئيسكم والمسؤول عنكم, لم يحدث منه أبدًا أن سعى في قطع رزق أحد, فلماذا سيفعلها معك أنت خصيصًا, هل هناك ما يدعو؟

سيدافع منعم عن موقفه لآخر قطرة في دمه مهما كان الثمن

- لا أعلم ما سر كراهيته لي, لكن كل ما أعلمه أنني لم أقترب من تلك الفتاة التفت الحاج عماد إلى الفتاة التي ظلت صامتة متجمدة كجبل جليد طوال تلك الفترة ولم تتحدث ولو بكلمة واحدة لتؤكد كلام أحدهما

- هل يمكن أن أعرف منك ما حدث؟

ولكم كانت صدمته عندما بدأت الفتاة في إصدار أصواتا هادئة غير مفهومة ومعها إشارات بيديها جعلت الدموع تظهر في عينيها، يالا تعاسة الفقراء!! ألا يكفيها فقرها وعجزها حتى يزيد على كاهلها من هم مثل منعم عجزاً على عجز، اضطر أن يهز رأسه علامة عدم الفهم، أسرع أحمد بالتدخل

- الفتاة يا حاج تسمع لكنها لا تستطيع النطق

رق قلب عماد للفتاة ودموعها، نظر إلى منعم باشمئزاز

- حقاً، الحواس يمتلكها الجميع، لكن الشعور بها لا يحق إلا لمن يُقدّر امتلاكها

ثم وجه نظره للفتاة التي كانت يديها تعصران خجلاً على ذلك الموقف الذي لم تحسب له حساب

- تفضلي بالمكتب لأعرف ما الذي حدث بعيداً عن زبائن الوكالة، بدلاً من الشوشرة في المكان

هزت الفتاة رأسها بخجل اعتراضاً على دخول المكتب، فلم يسعه إلا أن ينتحي بثلاثتهم جانباً، ثم أفسح لها المجال لتبدأ وتخبره بما حدث، أشارت الفتاة تجاه منعم واخذت في إصدار إشارات كثيرة لم يفهم منها عماد إلا أقل القليل، نظر إلى أحمد مستفسراً

- تقول أن منعم منذ أن رآها أول مرة وهو يشير لها بأنها حلوة، لم تعيره بالاً واجتنبته ولم ترد الشكوى ظناً منها أنه سيميل ويخرجها من رأسه، لكنه لم يتوقف، واليوم أشار لها أنه يريد الخروج معها، فخرجت عن شعورها وصرخت في وجهه، لكنه أسرع وشاور لها إنها إن لم تصمت سيقطع قدمها من الوكالة

كان أحمد يترجم لعماد وهو يعيد أشارتها حتى لا يتهمه منعم بالزيادة على ما قالت، فأمثاله ما هم إلا غربان يترقبون بحذر ليلتقطوا كل ما هو عفن، التفت عماد لمنعم بعينين ملوئهما بالاشمئزاز والغیظ وقد ارتفع صوته

- إن لم تصمت ستقطع قدمها من الوكالة!! هذا على اعتبار أن تلك الوكالة التي أورثها لك أهلك فتقطع قدم هذه وتثبت قدم تلك

ثم سأل أحمد وقد نفذ منه الصبر وأخذ الضيق من ملامحه

- ماذا تشتري تلك الفتاة يا أحمد؟ هل تشتري طلبات بيت أم أكثر من هذا؟

أسرع أحمد بالإجابة, وعينيه ملؤها العطف عليها

- أكثر من طلبات بيت يا حاج

طلب منه عماد الاستفسار منها, ماذا تفعل بما تأخذه؟ فعرفا أنها تُقسمهم في أكياس صغيرة وتبيعهم في منطقتها

نظر الحاج عماد إلى منعم نظرة طويلة ثابتة, ما الذي يمكن أن يقال لمخلوق مثله, ومهما قيل هل سيغير هذا من قلبه!! هل ستثبت الكلمات فيه شفقة حُرْم منها, علمته الحياة أن النصيحة كالماء تروي ما هو موجود, لكنها لا تثبت بذور العدم

- راجع حسابك, ولا أريد أن أرى وجهك هنا مرة أخرى

ثار وجه منعم وكلماته وهو ينفذ ملابسه بيده كأنه سيثير في وجوههم رمال الصحراء

- تلك وشاية يا حاج, أنا لم أفعل شئ, ذلك ظلم, هل ضاقت الأرض عليّ فلم أجد إلا تلك الخرساء لأشاغلها

أزعجت كلماته أحمد الذي عض على شفتيه هو ينظر للفتاة بأسف, أما عماد فكان يدقق النظر في وجه منعم ويفكر, ذلك المعنى لا يصدر إلا عن شخص عديم الأحساس والأخلاق, وهو ما لن يرضاه في أخلاق بائعي وكالاته لتظل سمعتها كما كانت منذ أيام والده, ظنه سيعتذر ويُقسم على عدم العودة لمثلها, لكن إزعاجه الحقيقي كان من تأثيرها على الفتاة التي تراجعت للخلف ونظرت إلى الأرض بحزن وأسى, تلك الكلمات التي هوت من فم منعم لا تدل إلا عن تفكير ضيق وقلب أضيق, فارتفع صوت عماد وهو ينظر له شزراً

- هل يعيبها كونها خرساء عفيفة بينما أنت متكلم لم يزدك كلامه إلا وقاحة!! تلك الكلمة وحدها تزيج عن أضلعك لنرى قبح ما تُخفي, أغلق حسابك ولا تقترب من الوكالة مهما كان الأمر, ولو راودك عقلك بالاقتراب منها أو من أحمد بأي تصرف, أنت تعلم ما الذي يمكنني فعله

أشار له عماد بكفه فانصرف يحمل معه رياح القبح ليصفو المكان من غباره, ثم عاد بنظره إلى الفتاة معذراً

- اقبلي اعتذاري وأعدك بعدم تكرار ما حدث, لا تتعاملني مع البائعين وتعاملني مع أحمد فقط, حقاً هو مشرف العمال لكنه سيأبى طلباتك

ثم انتقل بنظره لأحمد الذي سارع بطيبة

- كما تأمر يا حاج

ظهرت الدموع في عيني الفتاة وأصدرت بعض الإشارات لم يفهمها فطلب من أحمد تفسيرها

- تطلب العفو عن منعم لأنها لا تريد أن تكون سبباً في قطع عيشه

ابتسم عماد بلطف

- لست السبب, السبب الوحيد أفعاله, وجود من هم مثله يؤثر على سمعة الوكالة, لقد صنعت لنا معروفاً باصطياده, لا نعرف من كان سيؤذى وكيف؟

أشارت له إشارة فهم منها الحاج عماد أنها تشكره

حياها قبل أن ينصرف ويتركها لأحمد

- لا شكر على واجب

امتدت يد أحمد لها, أخذ ورقة طلباتها وانصرف بينما وقفت هي في هدوء, غاب قليلاً ثم عاد بكيس أسود كبير أعطاها أياه, أعطته الحساب وخرجت من باب الوكالة, عبرت الطريق للاتجاه المقابل وهي تحمل الكيس الكبير لتقف وتنتظر الميكروباس الذي سيوصلها لبيتها, لم تكن تعلم وهي تنتظر

أن الحاج عماد يرقبها من نافذة مكتبه, جاء الميكروباس ليحملها وشقاءها  
الذي لا يعلم عنه وتغيب عن ناظره

أخرج تنهيدة عميقة وهو يشير لأحمد بيد قلبى النداء

- تلك الفتاة يبدو عليها الحاجة

قاطعه أحمد مسرعاً

- نعم, ومهذبة جداً تأتي فى هدوء وتتصرف في مثله

- راعها يا أحمد, واعطها ما تريد من بضاعة حتى لو لم تمتلك ثمنها,  
كيف تحاسبها جملة أم قطاعي؟

- جملة يا حاج, حتى يكون لها مكسب فيما تأخذ

هز عماد رأسه مستحسنًا ما يفعله أحمد ثم زاد

- قلل لها حسابها أكثر مما تفعل

- جزيت الخير يا حاج

همّ أحمد بالانصراف إلا أن عماد استوقفه وهو يضحك ضحكة عالية  
وينظر له بمكر

- ادهشني أنك خبير في لغة الإشارات, فمتى تعلمتها؟

شارك أحمد عماد ضحكاته وهو يذكره

- هل نسيت سيد الأخرس الذي أحضره الحاج الكبير يوماً وأوصاني وأبي  
أن يبيت فى الوكالة وينظفها, كنت صغيراً وقتها, لكني تعلمت لغته

هز عماد رأسه وقد بدا عليه الحزن

- رحمة الله عليهم جميعاً

\*\*\*\*\*



بضع ساعات قليلة خرج بعدها عماد من الوكالة ليركب سيارته الفارهة وينطلق إلى مدينة نصر, وذكرى أول حب فى حياته تطارد خياله, لا يعلم لماذا أخرجتها تلك الفتاة من مرقدها بعد كل تلك السنوات؟ وما هو الرابط بينهما ليستعيد أحداث مر عليها أكثر من عشرين عاما, طارده الذكريات وكأنها حلقات تتشابك لتصنع أمام عينيه سلسلة الماضى التى لا تغادر صدره, نهضت صورتها التى تسكن عينيه لتبتسم وتبكي, تأمل وتيأس, تعاتب وتصفح, نظر بعيداً وشمس الظهيرة الحارقة تستعد للرحيل لتفسح لنسمات العصر أن تتخلل أنفاسه, فمحتة ابتسامة ذكرى ملأت نفسه حباً وشجناً, دخل فيلته فاستقبلته زوجته مريم بذلك الوجه المتهكم الساخر الذى تتلقاه به دوماً وهو عائد من الوكالة

- حمد لله على السلامة يا حاج عماد

لم يجد إلا الصبر درعاً ليحمي نفسه وابنتيه من شجار يرى شرره ويتمنى أن يلقى عليه الرمال فيخمد

- سلمك الله يا مريم

- ما أخبار بورصة الأزهر والعطارة اليوم؟

التفت لها بعينين ضاقت جفونهما إنذاراً

- ألن نكف عن ذلك السؤال وتلك اللهجة؟ ليس كل يوم, اهدأي قليلاً, لن أحمل ذلك النكد المتواصل طويلاً

- أنت الذي لن تتحمل النكد!! ماذا أقول أنا إذا, لم أعد أحتمل إصرارك على الوكالة والأزهر والعطارة, هل يجب أن أذكرك طيلة الوقت أنك مهندس إنشاءات وتمتلك أكبر مكتب إنشائي فى مدينة نصر

وبنظرة تحدي وعناد أصبح لا يوجهها إلا لها

- أنا رجل حر أفعل ما أريد, الوكالة إرث أبي والمكتب صنعته باجتهادي, هل عند الهانم مانع أو اعتراض على ما أقول؟ ما شاركتي فى ثمنه تحكمي فى إدارته!!

- تزوجتك مهندس لا بائع عطارة!! .... قالتها بسخرية وتحدي دفع عماد إلى المزيد

- أعتقد أن البرنسيصة كانت تعلم أن أبي يمتلك وكالة عطارة عندما جئنا لخطبتك, وهو ذات السبب الذي دفعك للموافقة لأنها باب الثراء

أشتعل وجه مريم غيظًا وتلجلجت الكلمات بين شفتيها وهي تنطقها

- لن أنكر, لكني أراه ماضٍ ورحل, ولم اكن أتخيل أن تبقي عليها بعد رحيل والدك!!

رمقها عماد بنظرة جامدة طويلة

- لننهي ذلك النقاش وتلك المأساة التي تعيشينها, الوكالة لن تُغلق أبوابها ولن ينطفئ اسم والدي في الأزهر طالما أنا على قيد الحياة, ولن ينقطع رزق عماله الذين خدمونا عمرهم بأكمله, ولن أكف قدمي عن بيت دنيا وجنات

زاد تحفز مريم وعصبيتها وارتفع صوتها

- ومستوى بناتك الإجتماعي ألا يهكم مطلقًا ... ثم رفعت كتفيها وهي تضرب كفيها ببعضهما وتزيد

- أنا لا أعرف كيف تدير هذا الانقسام في شخصيتك, الحاج عماد صباحًا في الوكالة, والباشمهندس عماد ليلاً في المكتب!!

- الوكالة هي من وضعت بذور مستوانا الإجتماعي والمادي, ولن اقتلعها من أرضي, ستظل خصبة بها, وتذكري أن كل ما تتفاخرين به لم يحققه لك إلا ابن صاحب تلك الوكالة التي تجعلك تستشيطين غضبًا

ارتفعت أدخنة الغضب من عيني مريم وأنفها وفمها

- وبناتك!!

- بناتي!! هل حقًا هذا ما يزعجك, أنت لا تهتمين إلا بنفسك ولنفسك, وأنا أعرف جيدًا لماذا تزعجك تلك الوكالة, ولننهي الأمر هنا وليس بعد الآن,

لن أقتلع جذوري من أرضي وأرض أبي واخوتي مهما فعلتِ وحاولتِ،  
وإن لم يرق لكِ هذا يمكنني الرحيل بمنتهى السهولة

غادرها إلى حمام دافئ يهدأ غضبه، بينما كانت الخادمة تعد طاولات الغداء الذي يجتمع عليه مع توأمه عادة وغيداء الطالبتان بالسنة الثانية الثانوية بالمدرسة البريطانية، سبقهما إلى حجرة الطعام، قبّلتاه قبل أن تأخذ كلا منهما مكانها، نظرت مريم إلى غيداء تستحثها، فخرج صوتها منخفضاً وهي تحرك الشوكة بخجل في طبقها

- سمعت شجاركما، ما الذي يمكن أن يكون قد حدث؟

انطلقت مريم لتثير العاصفة

- أحاول أن أوضح لأبيكما أن وكالة العطارة لم تعد تناسب مستوانا لكنه لا يعي حرقاً مما أقول .... ثم نظرت لعماد بتحدي، فأضافت غيداء

- مامي محقة، أنا لا أستطيع أن أذكر لصديقتي أننا نمتلك وكالة عطارة بالأزهر، كل ما يعلمونه عنك أنك صاحب أكبر مكتب إنشائي هنا

أسرعت عادة لتخيط ما مزقته غيداء

- ما تلك العقد الشخصية!! التفريط في الماضي يهدم الحاضر، أنا لا أرى ما ترون على العكس، أنا أحب الوكالة وأصطحب صديقتي إلى هناك، يعجبنا جو الأزهر وسحر المكان وعبقه، شهامة الرجال وبساطة النساء

لم يقابل رأى عادة هوى مريم فأسرعت لتسكتها بتهكم

- سحر المكان وعبقه!! وعندما يجيئك خاطب من أسرة عريقة، ستجعلني خطبتك هناك حيث سحر المكان وعبقه

- ولما لا، الناس هناك طيبون، متشاركون، الانفصال النفسي والروحي لا يأتي إلا كلما ارتفع المستوى

يعرف عماد أن ذلك الحوار بين مريم وغيداء ما هو إلا تمثيلية رديئة أخرجتها مريم لتضغط عليه، فلما لم ينطق بحرف اضطر الجميع

للصمت, نظر عماد الى السفرة الممتدة أمامه والتي تحمل ألوان طعام  
تطيب له أي نفس لكنه لا يجد أي رغبة تجاهه, همّ واقفا واتجه إلى الباب,  
ثم تركهن وراءه وانصرف.

\*\*\*\*\*

حملت سلالم البيت العتيق بأكملها الفتاة حتى أوصلتها لغرفة بسيطة على  
سطحه, حاملة كيس العطارة على كتفها, سمعت زفرة أنين أمها فتنهدت  
قبل الدخول محاولة عبثاً أن تُخفي رتوش حزن عبثت بملامحها, تعلم أنها  
راقدة في سريرها الذي لا تقو على فراقه من شدة المرض, أنهكت الحياة  
قلبها واعتصرته فامتثل وجف, ولم يعد به قطرة قوة واحدة, سمعت  
صوتها الضعيف يسألها عن حالها, خلعت الفتاة نقابها فظهر ما جاهدت  
أخفاؤه وهي تشير

- الحمد لله, أحضرت العطارة وسأقسمها حالاً في الأكياس الصغيرة  
وأنطلق للسوق

اعترضت الأم بوهن وضعف و سبابتها تشير بالرفض

- لم تتناولى لقمة منذ الصباح, تناولى الغذاء قبلاً

هزت الفتاة رأسها مطلقة تنهيدة ضاق بها صدرها طويلاً فاضطرت  
لإلقائها, حاولت الأم النهوض لتجهيز الطعام فأشارت لها ابنتها

- ارتاحي يا أمي, أنا سأحضر الطعام حيث أنت

ذهبت في اتجاه البوتجاز الصغير, فتحت الحلة التي تعلوه واخذت في  
غرف طبق من المسقعة التي اعدتها قبل الذهاب إلى الوكالة, وعلى صينية  
كبيرة وضع عليها الطبق والأغرفة اجتمعت الاثنتان, لم تخف على الأم  
نظرات الحزن التي تعلو عيون ابنتها كبحر هاجت أمواجه

- ما بك؟ لست بخير يا حبيبتي

أشارت الفتاة للأم بكل ما حدث في الوكالة, وبحزنها لأنها كانت السبب في  
طردها من عمله

- يا ابنتي لستِ السبب, أنت فتاة عاقلة مهذبة فضحتي رجل كان يمكن أن يضر بغيرك ممن هن أصغر سنًا أو أقل حكمة, صاحب الوكالة عنده الحق في طرده, مثله يمكن أن يسيئ لسمعته

أشارت الفتاة بأنها تعلم كل هذا لكنها تعرف أيضًا أن قطع الأرزاق صعب على النفوس, وبضميرها الذي يصرخ كونها السبب ابتسمت الأم لطيبتها ورقة قلبها

- لو استمر صمتك لظنها موافقة منك, ولم يكن ليتوقف عند ما فعل, كان سيزداد, وعندها سيكون السؤال الذي سيمزقك لما صمتي كل تلك الفترة, الأخطاء يا فتاتي كالطعام إذا زاد اكتنازه فاحت رائحة عفنه, وقد يظن أحدهم بكِ السوء لسكوتك, فعلتِ الصواب يا ابنتي

تهددت الفتاة تهيدة من ألقت الأيام عليه بثقل وتأبى أن تزيحه عنه, كأن الحياة اتخذت قرارها بأن تجعل صدرها موطن احمالها الثقيل, أرادت الأم أن تخفف حملها بدعابة

- لكن تلك المسقعة كانت جميلة وشهية, استمتعت بها وأشعر أنها منحنتني شيئًا من قوة, وسأجلس معك لأساعدك

ابتسمت الفتاة وهي توجه نظرات اعتراض شديدة

- تساعديني!! كلها أشياء بسيطة, كل ما يهمني صحتك

ربتت الأم على كتفها واغرورقت عينيها بدموع الشفقة على فتاتها, لكنها تعلم جيدًا أن تعبها ما بين الدراسة والعمل أهون من الحاجة.

بعد الانتهاء من صنع الأكياس, أخرجت العربية الصغيرة من تحت بئر السلم في اتجاه الشارع ومنه إلى السوق حيث مكتبة عم إبراهيم جارها الطبيب الذي استأجرها بعد تجاوزه الستين, فالمعاش وحده لا يكفي متطلبات أبنائه الجامعيين, وعندما اضطرت للعمل هو من أشار عليها بالتجارة في العطارة وأوصى نجار بصنع تلك العربية الصغيرة لتضع عليها بضاعتها, ولم يكتف بذلك بل جعلها تقف أمام مكتبته حتى لا

يتعرض لها أحد ممن في السوق بأى أذى, كانت تجر العربة وهى لا تفكر إلا فى شئ واحد, متى ستنتهى تلك المعاناة؟ تكره السوق وجلسته واضطرارها لتحمل أصناف البشر المختلفة وأنفسهم التى تتأرجح بين الرداءة والتهذيب, لكن ما عساها ان تفعل!! وتكاليف علاج أمها التى ليس لها دونها مخلوق باهظة, ولن يتحملها معاش والدها أسبوع فضلاً عن متطلبات البيت والتعليم.

لمحها عم إبراهيم من بعيد فارتفعت يده بالترحيب وصوته بالسلام, بينما وضع أحدهم يده على يد عربتها ليوقفها فى دهشة منهما.

\*\*\*\*\*

ارتفعت همماتها بسخط, بينما أسرع عم إبراهيم نحوها ليمسك بالغريب

- ماذا تريد؟ ابتعد عنها

ارتفع صوت منع بالصراخ

- تلك الخرساء كانت السبب فى طردي من عملي اليوم, ولن أترك حقي

قالها وهو يحاول الهجوم عليها, دفعه عم إبراهيم بما استحضره من قوة خائفة, حاولت الفتاة الدفاع عن عم إبراهيم وأظافر منع تتجول فى وجهه, بينما قدمه لا تكف عن ركله, وقفت تنظر حولها فى ذهول!! منذ متى نُزعت النخوة من الدماء!! منذ متى تحولت أي مشاجرة بين رجل وامرأة إلى عرض سينمائي يجذب الجمهور دون مشاركة, الكل ينقم على الفتاة دون فهم, الرجال يتمنينها بغى لتحلو الحكايا, والنساء يتزين بالفضيلة ويتهمنها بفعل ما جعله يتتبعها, ازادت الضجة التى استدعت سيارة شرطة السوق, لم تجد الفتاة أمامها إلا الإسراع لكشك السجائر بعد أن خطفت كيس الوكالة من عربتها, طلبت من صاحب الكشك الاتصال بالرقم الذى على الكيس وإخباره بالشجار ثم هرولت لعم إبراهيم, رن هاتف الوكالة فتلقى أحمد الاتصال, أخبره صاحب الكشك أن الفتاة الخرساء تستنجد به, وأن الشرطة أخذتها هي وصاحب المكتبة ورجل غريب إلى قسم السيدة عائشة, ففهم أحمد من المكالمة أنه منع

انزوت بين ركني حائط القسم ليضمها, الحجر الأصم بات له قلب قد لا ينبض لكنه يأن بأنين المظلومين, سيشهد يوماً وستكون شهادته الحق وسط زيف السنة البشر, مرت أكثر من ساعة قبل أن يوجه ضابط القسم كلامه لمنعم

- بطاقتك, وما الذي حدث؟

ناوله منعم البطاقة وهو يشير نحوها بغیظ

- تلك الفتاة تبیع عطارة في السوق, ذهبت لأشتري منها كيس كمون, أطالت الحديث معي بطريقة غريبة ثم فوجئت بيد هذا الرجل تسرح في جيبي لسرقتي, فعرفت خدعتهما هي تشاغل الزبون وهو يسرقه

لم يینه منعم كلماته حتى وجد كف توضع على كتفه, التفت بذعر لتلتقي أعينهم, خرجت حروفه من بين شفتيه كمن ينطق الشهادة

- الحاج عماد!!

أزاحه بكفه ليفسح طريقه للضابط الذي شعر بارتباك منعم وبأهمية القادم

- هذا الشاب كان يعمل عندي بوكالة العطارة, عاكس تلك الفتاة اليوم وتم طرده فأراد الانتقام منها

نظر الضابط نحو منعم الذي بدأ عرقه في التصبب

- المشكلة أنه قبل خروجه سرق شوال صغير من أثمن عطارة في الوكالة, ورئيس العمال وكل عمال الوكالة شاهدون, أريد تحرير محضر بالسرقة وتفتيش حجرته

لم يصدق منعم أذنيه, فبدأ في الصراخ

- أنا يا حاج, أنا لم أسرق الوكالة

رمقه عماد بنظرات حادة

- وتلك الفتاة سرقتك؟ إن هي سرقتك فأنت سرقتني, وسيخرج الشوال من غرفتك, وسأعرف كيف أخرجها من ورطتها

نظر منعم إلى الأرض أسفًا, الحاج عماد يساومه كذب بكذب, وجناية بجناية, أعاد نظره إلى الضابط

- لم تسرقني, أفتريت عليها لأنها السبب في طردي

هز الضابط رأسه بتعجب, وجه كلامه للحاج عماد

- لو تعلم عدد البلاغات الكيدية التي تزعجنا طيلة النهار, لأجل هذا اجعلني أحرر فيه محضر

التفت عماد بنظرة هجومية محذرة لمنعم

- ليس تلك المرة, فهو لن يكررها

هز منعم رأسه بخوف, كل ما يهمة الآن الانصراف, لقد وضعه الحاج عماد بين فكي كماشته التي لن ترحمه, سينسى أمرها ويلقيه خلفه, سارع بالانطلاق فور خروجهم من القسم, بينما شكر عم إبراهيم الحاج عماد

- لا شكر على واجب, على العكس آسف لما حدث

كانت تسير بجانب عم إبراهيم بعد رفضهما عرض الحاج عماد بتوصيلهما, يلتف رباط الضيق حول عنقها وصدرها, طال الطريق وضاق وانحنى بها في متاهات الألم, ربت على كتفها

- لا أريد للحزن أن يملأ عينيك هكذا

ماذا عساها أن تقول, هل تسر له بأنها باتت تخشى البشر بسبب أوغادهم, أنها اختنقت برائحة أنفاسهم ونظرات عيونهم التي تتردد بين شفقة وطمع وغدر, أن الجبل الذي ارتفع فوق كتفيها يزداد حملاً يوماً بعد يوم فانهالت حجارته وردمت موضع الصبر في قلبها, لا لن تقول هذا لمخلوق, ستحرص على الثبات حتى يأتي يوم يلوح اقترابه في الأفق, وصل قلب



عم إبراهيم قطرات ما هاج فى عينيها من أمواج التعب والدموع, القلوب  
السليمة لا تحتاج شفاه لتفهم, تحتاج فقط صفاء روح لتشف عما لم تبج به  
- أعلم أن الحياة وضعتك فى إختبار قاسي, أنت صخرة صغيرة حقًا, لكنها  
صلبة ولن تتفتت

هزت له رأسها بالموافقة, دخل عم إبراهيم مكتبته ليصلح ما أفسده منعم,  
بينما تكورت هي بجانب عربتها في انتظار ما ستجود به ساعات الحياة  
القادمة ما بين رزق وألم وصبر.

\*\*\*\*\*

شهر كامل قبل أن تطأ قدمها الوكالة, استقبلها أحمد بابتسامة وجهر لها  
طلبها, اعطته الفتاة ما تعطيه كل مرة لكنه رد لها مائة جنية, أشارت له  
مستفهمة, هي ذاتها الطالبات فلما التخفيض؟

- الحاج عماد أمرني بهذا

هزت الفتاة رأسها مشيرة بأنها ستدفع ما تدفعه كل مرة

حاول أحمد معها طويلاً إلا أن إصرارها دفعه لتهدئتها

- دقائق فقط أخبر الحاج, لن أستطيع كسر أوامره

دخل أحمد المكتب يحمل وجهه ملامح ما يريد قوله, هز عماد رأسه  
مستفسراً

- تذكر يا حاج الفتاة التى هاجمها منعم في السوق؟

- مالها؟

- خفضت لها مائة جنية لكنها رفضت إلا أن تدفع ما تدفعه كل مرة

بُهِت عماد, هل يوجد الآن من يرفض تخفيض!! خرج بصحبة أحمد حيث  
كانت تنتظر, ثم أمره بالذهاب لعمله

أشار لها بالتحية, فأشارت له بالسلام

- ما المشكلة؟ لكن اعذريني بهدوء, أريد أن أفهم بمفردي دون الحاجة لأحمد

أشارت وهى تنظر للأرض بخجل أن أحمد أعاد لها مائة جنية من الحساب  
تسمر عماد أمام عزة نفسها, أغمض عينيه وهو يتنهد تنهيدة خفيفة  
- أنا من أمرته بذلك

أشارت بضع إشارات, رفع سبابة يده متسائلاً  
- هل تقصدي عطف؟

هزت رأسها علامة الموافقة, ابتسم لها برفق  
- لا ليس عطف, عرفت أنك تتاجرين فى البضاعة فحاسبتك بسعر الجملة  
هزت رأسها بالشكر, همت بالانصراف إلا أنه استوقفها  
- والدك هو من دافع عنك ضد منعم؟

هزت رأسها بالرفض ثم أشارت بأنه جارها  
- هل يمكن أن أعرف اسمك؟ لم أتمكن من معرفته يوم القسم  
أشارت كأنها تشم زهرة لها رائحة جميلة  
- زهرة لها رائحة جميلة .. وردة .. فلة

اعترضت الفتاة على الاسمين  
الحاج عماد بعد تفكير

- ياسمين

أشارت بالموافقة ثم انصرفت حاملة كيس البضاعة الثقيل بين يديها.  
لا يعلم عماد لماذا استحوذت على أفكاره ولو قليلاً, هل هى مشاعر الشفقة  
على فتاة عشرينية مقيدة بأغلال الفقر والشقاء والصمت, وبالرغم من ذلك

لم يقبل كبرياؤها المساعدة, بينما الكثير يكسو نفوسهم الطمع ليصنع لهم حُلة من التدنى , أم هي تلك الذكرى التى تطرق بابها منذ أن رآها!! ذكرى أحلام بنت غفير الوكالة, كانت أول من طرق كفها أبواب رحلة قلبه مع الحياة, غزته من أول وهلة بجمالها وطيبتها, وتلك النظرة الحانية التى كانت تتابعه بها أينما حل, تابع ياسمين من خلال نافذة مكتبه حتى ركبت الميكروباس وانطلق بها, هز رأسه محدثاً نفسه

- حقاً تلك الحياة لا تهون إلا على الفقير!!

\*\*\*\*\*

فتحت عيني ياسمين هوةً واسعة في عقل عماد, فتردى لجب ذكرياته المختبئ في قلبه تتقاذفه جنباته, أربعين عاماً هي عمره مرت كبرق السماء السريع, ومضاته أنارت في رأسه شعيرات بيضاء قليلة, وطوقته بقيد مريم فاختنقت روحه بخيلائها على شقاء أبيه الذي استطاع في سنوات ليست بالقليلة أن يتحول من تاجر على عربة متنقلة إلى امتلاك محل صغير, ثم أصبح المحل اثنين, ثم وكالة عطارة تستورد من صنوفها من كل مكان ما هو طيب.

داعبه طيفي أختيه " دنيا وسماح ", وكعادة سكين الحياة تشد نصلها على الكبير, لم تستطع دنيا أخته الكبرى والتي يفصلهما عشر سنوات كاملة لم يجد فيهم رحم أمه بنطفة أن تحصل على قدر من التعليم, بل كان نصيبها القدر الضئيل من كل شئ, ولأن الله يبشر الصابرين الراضين, ربط قلبها وقلب إحدى صبيان أبيه الطيبين بخيط حب حريري, شعر أبوه بصدقه فلم يرد قطعه, فأثمر زواجها من الحاج جلال عن ثلاث صبية محمد وعمر وعلى, يعلم الجميع أن دنيا ليست أخته بل هي أمه الثانية, شاركت أمها التى فقدت جزء كبير من صحتها بعد ولادته في تربيته, كم هي عطوفة وحانية وبيتها المفتوح للجميع تملؤه حالة من الرضا والحب المشمول بعناية الله, زوجها رجل لم تثير شهيته رائحة أموال أبيها ولم تسل لعبه, يحترم عماد تعففه وتدينه وكفاحه, بارك الله لهما في أولادهما فتخرج

محمد حديثاً من كلية الطب وعمر أوشك على التخرج من كلية الهندسة  
وعليّ في أول عام من كلية الصيدلة .

لم يطرق عماد باب دنيا يوماً إلا احتواه حضنها الواسع بحجم الكون وهي  
تربت على ظهره وتدمع عينيها وتقول

- أشعر عندما أراك بنفس الفرحة التى شقت صدر أبيك وحفرت فى قلبه  
نهر حب لك عند مولدك لا ينضب, اسماك عماد لتكون عماداً لنا من بعده

ثم تغيب لتحضر الشاي وتكمل بكاءها وحروف قلبها النابض

- أصطحبك معه فى كل مكان وبالذات الوكالة, كان يعتز بك لأنك من  
سيحمل اسم عائلته, رباك لتصير رجلاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى,  
وها أنت يا حبيبي تتحمل مسؤولياتك تجاهنا ولا تتخلى عن شئ منها

ابتسم عندما داعبه طيف أخته سماح التى تصغره بخمسة أعوام وكأنها  
تقول متحفزة " ألا تتذكر إلا دنيا ", ولدت فى حال الرغد المعيشى لوالده,  
طبيبة عيون متزوجة من محمود طبيب أطفال, تسكن مصر الجديدة حيث  
تعمل وزوجها فى مستشفى خاص كبير ويمتلكان عيادة خاصة سوياً, لم  
ينجبا إلا فتاة واحدة صغيرة وجميلة تدعى جيهان

حملته ذكرى أبيه واشتياقه لرائحته وطيفي دنيا وسماح إلى باب جنات  
زوجة أبيه, اضطر أبوه للزواج منها فى أواخر عمره وبعد وفاة أمه  
لتخدمه وترعاه, نصحه بها أمام المسجد, أرملة طيبة مات عنها زوجها  
وترك لها ابن يدعى منصور ولا عائل لها, فضمها بيت أبوه تحت سقفه  
كزوجة على الأوراق وابنة ثالثة فى الحقيقة, خدمته بكل أمانة وإخلاص  
فاتسعت لها القلوب بمودة صادقة, دق جرس الباب, أطل منصور بوجه  
بشوش زادته رؤية عماد فارتفع صوته ببهجة

- الحاج عماد يا أمي

خرجت جنات من المطبخ تسابق قدميها الريح

- كنت أفكر فيك حالاً, فهل وصلت رائحة الفتة التي تحبها من يدي للوكالة؟

وضع عماد ما يحمله من زيارة وارتفعت ضحكاته بينما يده تلتف حول عنق منصور

- أنا لا أحب الفتة فقط, أنا أحب كل ما تصنعه يديك

تنهدت جنات وهي تحرك رأسها يميناً ويساراً

- قطعة من أبيك يا عماد, جابر للخواطر والشهد يتساقط من فمك

التفت عماد لمنصور وهو يقول

- عاداتها كلما رأتني, تبالغ في مديحها

هز منصور رأسه نافياً

- تستحق أكثر مما تقول أُمي, أنت لم تعوضني عن غياب الأب فقط بل عن الأخ الكبير أيضاً

رائحة الفتة واللحم تنبعث من الأطباق, ورائحة طيب الكلام تهوي من الشفاه

- يكفي يا عماد أنك لم تنسلخ من جلدك بالرغم من تفوقك, بل ظلت جذورك هنا, تمتد لئطمئن قلوبنا بوجودك مهما كانت التحديات

يعلم ما تقصد, هي امرأة ذكية تعي محاولات مريم التي لا تتوقف لاقتلاعه من أرضهم, يعلم أنها ضايقته بالغرور وثقل الكلام في اللقاء الأخير لهم

- ستنزل جذوري تثبت شجرة العائلة أبي طالما يرتفع صدري بأنفاس

غابت جنات في أفكارها, ماذا كانت ستفعل بدونه, أنفاسه بالفعل هي من تمنحها وولدها حياة كريمة, يراعي الصغير والكبير, الغني والفقير, يسعى دوماً لتحسين ظروف من حوله, يعشق نظرات السعادة والأستقرار في عيونهم وبالذات في التجمعات العائلية كعشق طفل في العيد لملابسه

الجديدة, نظم ميراث أبيه لىخدم مصالح الجميع, لم يفرط فى وكالة ابيه لتظل مصدر رزقهم, ولا فى بيته لىجمعهم بعد موته كما جمعهم فى حياته, أعطى دنيا محلاً لينمى زوجها تجارتها واصر الحاج جلال كعادته أن يسجل عماد المحل باسم دنيا لا باسمه, وأعطى سماح نصيبها مالا لتتمكن من فتح العيادة الخاصة بها وبزوجها, حتى هي وابنها اشترى لهما شقة قريبة من الوكالة ليستطيع رعايتهما, وجعل لها نصيباً باسمها فى الوكالة يدر عليها دخلاً تنفق منه حتى يغنيها عن الحاجة

داعبها عماد لما غابت عينيها فى بحر ذكرياتها

- أين ذهبت يا أم منصور؟

- ذهبت إلى حيث كنت سأكون لولا أبوك ولولاك

- هل تعرفي يا جنات أن اجتماعنا فى المناسبات وخصوصاً عيد الأضحى, ولمتنا حول ما صنعتِه أنت ودنيا من طعام بمنتهى الحب والتجرد, الذبح وتوزيع اللحم, الضحكات هنا وهناك, البراعم الصغيرة التى نبتت فى شجرة العائلة, هي فقط من تجعل لأيامى طعم

- حقاً يا عماد, لكن لا تنس أن تلك المشاعر أنت من زرعتها ويحصد من دفئها الجميع

- لا يا جنات, لقد أكرمني الله بكم, يكفي أن وجود الحاج جلال ومحمود لغى شعوري بأني ولد وحيد, مشاعر الود العائلي التى تبذرونها حولي لا تقدر من وجهة نظري بأموال العالم

تلك المرة عماد هو من رحل بخياله, وهو ينتظر الشاي الذى أصرت جنات على صنعه بالرغم من محاولاته الخاسرة للإفلات, لا يفسد ود عائلته إلا مريم, تشعر أنها فوق الأختلاط بجنات ودنيا, العلاقة الوحيدة المقبولة من وجهة نظرها علاقتها بسماح لأنها طبيبة زوجة طبيب, تلك المرأة تزن مقادير الناس بميزان مُطْفِف, لا يعينها إلا المظهر, لا تكلف نفسها عناء الغوص فى دواخلهم لتستخرج درر نفوسهم, فكم من فقراء

ارتفعت نفوسهم حد السماء وكم من أغنياء دنت نفوسهم حد الأرض, تنهد وهو يحدث نفسه

- كلما زاد الغنى زاد التكبر, الفجوة تتسع والأرواح تبتعد, حتى أصبحت فراغا شاسعا انقطع فيه الصوت وصداه .

\*\*\*\*\*

ينتظرها ولا يعلم لماذا!! كان الشهر من قبل يعدو كيوم وليلة, لكنه يمر الآن كالجبال الثقال, شئ ما يلمع بداخله لا يدري من أين أتى بريقه؟ هل ألقت بشعاع صبرها على صخرة قلبه فأنارت؟ هل هي الشفقة التي تحدثت عنها؟ أم تراها الذكرى المتوارية خلف باب التناسي خرجت تنهادر في ثوبها الفضي؟ أم تراها بذرة حب انظمرت تحت أطلال الماضي توشك على الانشقاق؟ لكن لماذا هي؟ لقد قابل الكثيرات ممن يسلبن الباب الرجال وقلوبهم, لكن عبثاً أن تنجح محاولتهن في إلقاء نطفة حب بداخله, فهل يُعقل أن تفعل تلك الفتاة ما لم تفعله غيرها, حسناً فليكيف عن مناقشة الأمر حتى مع نفسه, وليترك لمشاعره الأسيرة منذ زمن العنان لتنتطلق وتكتسي بجناحي اللهفة لتأخذه حيث ترسو به على إحدى الشواطئ, أما الشفقة, وإما الذكرى, وإما الحب.

الشهر يمر عليها كحبات مسبحة العابد لا تتوقف عداته, اليوم يحمل لها غد تتمنى مروره إلى الغد الذي تنتظر, والذي ستكف فيه عن جلسة السوق, لكنها عادت وما أن رآها أحمد حتى استقبلها بالترحاب كعادته, وقبل أن يعد لها طلباتها نبه الحاج عماد بقدمها كما أمره, يشعر باللهفة تحمله كبساط الريح, انتظر قليلاً ثم خرج مُدعياً تفقد الأحوال, جاهد ليجعل التفاتته نحوها صدفة, ابتسم لها مُرحباً, فأشارت بمثلها وهي متسمرة في مكانها, فلم يجد بُداً من الاقتراب

- هل هناك أي شكوى

هزت رأسها نافية دون أن ترفع نظرها من الأرض, شعر أنها لن تتجاوب إلا بالاختراق

- هل اقترب منعم نحوك بأي شكل؟  
فأعادت كرة النفي
- لم أعرف أين تتاجرين بأكياس العطارة؟  
أشارت بضع إشارات
- هل ما أشرت به السيدة عائشة حيث حرر المحضر في قسمها؟  
هزت رأسها بالموافقة  
أبتسم وهو يداعبها
- بدأت بالفهم بمفردي  
نكست رأسها خجلاً فأكمل
- هل أنهيت تعليمك؟  
أشارت بالرفض فعلم أنها ما زالت تكمل تعليمها
- أي دراسة تكملين؟  
أشارت برسومات وفرش
- تعجب من إشاراتها وظن أنه لم يفهم
- معهد أم كلية؟  
فلما أشارت بالثانية زاد عجبه
- فنون جميلة أم تطبيقية؟  
أشارت بالثانية
- أي قسم؟  
جال بصرها في المكان، رأت عارضة حديدية فأشارت لها



- حديد

فأشارت ياسمين بالموافقة

قاطع أحمد حديثهما

- تلك هي الطلبات

وضع كيس العطارة فأشار له عماد بالانصراف ليزداد من معرفة أحوالها, إلا أنها لم تمنحه الفرصة ليشبع فضوله لأهم سؤال, رفعت بضاعتها وشكرته وأنصرفت, الآن عليه أن يصبر شهراً طويلاً آخر, هل أحمد بتلك السرعة التي استشعرها؟ أم أن الزمن هو من توقف عندها فلم يشعر بما مر منه؟ منذ رؤياها وهي تحمل العجب بين كفيها ليرويها, كيف لتلك الفتاة أن تتحمل عبأ تلك التجارة بذلك الصبر وعزة النفس؟ كيف لها أن تجمع بين العمل وكلية ككلية الفنون؟ يعلم أن ذلك يتطلب إرادة كبيرة, قفزت مريم إلى خياله, فما تنفقه في شهر واحد كفيلاً أن ينقذ تلك الفتاة من الجلوس بين المارة, لكن هل تعي تلك النعمة؟

وبينما عماد غارق في أفكاره كانت ياسمين في طريقها للبيت, يلفح هواء الطريق رأسها ويلح عليها بسؤال, لماذا يهتم بأمرها؟ هل هي الشفقة؟ إنها تكره الشفقة التي تراها في عيونه وعيون الآخرين, تتمنى لو تصرخ فيهم أن يدعوها وشأنها, ليس الصمت وحده هو من يقيد بها أغلاله, فأغلال نظرات الشفقة أقسى وأعتى, لا تترك آثارها على جسدها فحسب وإنما على قلبها الذي لم يعد يحتمل, كل ما تتجرع من أجله مرارة الصبر هو التخرج والعمل الذي يليق بها لتنفذ أمها من المرض وتنقذ نفسها من عيون وألسنة البشر, ثم عبثت بقلبها خاطرة, إن لم يكن ما يحركه نحوها مشاعر الشفقة فماذا عساها أن تكون ؟ هل يمكن لمثله أن يهتم بمثلها؟ لن تنكر أعجابها برجولته التي تنطق بها أفعاله, لكن أين هي منه! وأين هو من أغلال فقرها ويتمها وخرسها!.

\*\*\*\*\*

بدأت الحياة فى عينيه بعد لقائهما الأخير باهتة, بالرغم من شقائها إلا أنها تتمتع بلذة قد لا تشعر هي نفسها بها, لذة الكفاح والحرية التي انتحرت على أعتاب بيت أهل مريم منذ أول زيارة, لقد ربطه والده فى سلسلة واحدة مع امرأة لا يحرك ساكنها إلا المال وبريق الذهب, فأصبح هو كنزها الذي لا تحرك صخرته إلا عندما تريد أن تنهل من خيرها, لقد بات يمقت الوقت الذي يجمعهما, ولولا عادة وغيداء لعرف كيف يكسر أغلاله التي كلما مر عليها الوقت تصدأ حتى انتشر سوادها كسحابة معتمة بينهما, فاجأه رنين هاتفه فأخرجه من خيالاته, ظهرت صورة سماح أخته على الهاتف وجاء صوتها يحمل دعوة لعيد ميلاد جيها

- ستفرح جيها بحضورك

لا طاقة له تلك الأيام بمقابلات عائلية لكنه لن يستطيع الاعتذار

- حاضر يا حبيبتي, حدي الهدية التي تريدها جميلتنا

كان اللقاء كما توقعه, مريم تجلس منتفخة كالطاووس مرصعة بجواهرها, تلتصق بها غيداء كقطعة سيامي تخشى توحش قطط الشوارع, عادة توزع محبتها على الجميع, لم تترك جنات ودنيا جانب سماح لترتيب المائدة التي ضجت بالحلويات والمشروبات, وجيها الصغيرة لا تكف عن نفخ البالونات مع صديقاتها, حوار ساخن بين محمد وعمر وعلي ومنصور عن المستقبل وكليات القمة, بينما حوار سياسي أكثر سخونة بين الدكتور محمود والحاج جلال, حالفه الصمت وانزوى فى ركن ليس ببعيد, الكل منشغل بحاله إلا هي, ربتت على كتفه وانخفضت بشفتيها

- ما بك يا عماد؟

- لا شئ يا دنيا, أنا بخير

ابتعدت بوجهها لتواجه عينيها عينيه

- خير, أي خير!! أنا أمك قبل أن أكون أختك, قل لي ما بك

- مختنق قليلاً

- لا يَخْتَنقُ أحدٌ دون أن يعرف السبب, نحن ننكره فقط , لكننا لا نجهله

أخرج زفرة ثقيلة من روح تائهة

- أعرف السبب, لكن مبكرًا الإفصاح عنه حتى لنفسي

جالت عينيها في وجهه تتلمسه, هل صدقًا ما يبدو في عينيهِ من ذبول لا يدل إلا على حب سرق بريقهما, وسرق الضحكة من شفثيه, تعلم أن حظه العسر أوقعه بمريم فلم يشعر بهناء أو احتواء امرأة, لكن تراها من تلك التي امتلكت كلمة السر فحركت صخرته العتية!!

- القلق سيلتهم قلبي, عدني أن تطمئني

- عندما يأتي موعد البوح أنت متأكدة أنه لن يكون إلا لك

هزت رأسها وقد حل الضيق على حال أخيها محل سعادتها باجتماعهم, مرت المناسبة بسلام في بيت سماح لكنها لم تمر كذلك في بيته, لم يتوقف لسان مريم عن ثقل الكلام

- مالي أنا وبناتي وتلك المناسبات, هل كان يجب أن تفرض عليّ الحضور؟ المفروض أنني حرة فيمن أخالط

زيادة الضغط أخرجته عن شعوره

- تلك عائلتي وأنتم أسرتي, اجتماعكم معهم واجب لا اختيار؟

- لماذا لا تذهب بمفردك؟

إلى متى سيستمر دورانه في تلك الدائرة المغلقة التي لا تنتهي, التجمعات العائلية لا تتعدى الأربع في العام, هل ضاقت بأهله لتلك الدرجة؟ هل أنبتت لها أمواله أنياب وأظافر تصارعه بهم؟

- لو ذهبت بمفردي فهذا لا يعني إلا أنني لا أملك اسرة مثلهم, اختنقتي وتريدي الحرية فلتكن حرية كاملة

أخرست كلماته شفتيها لكنها لم تخرس غيظ قلبها, ودخانها الذي يندلع في صدرها على كل من يحمل رائحة الأزهر والعطارة, صعدت غرفتها وهي تستشيط غضبًا, محاولاتها المستميتة لتفرقة عنهم دومًا ما تبوء بالفشل, رأسه العنيد تتمنى أن تكسره على صخرة طموحها لكنها لم تعرف بعد لذلك سبيل, بينما تجنب هو أدخنة الكراهية التي تفوح منها منزويًا في الحديقة يسامر الليل ويسامره.

\*\*\*\*\*

لا يكاد يصدق أن عقدَ الشهر انفرط ولم يتبق منه إلا بضع حباتٍ خفاف, بدا مؤرقًا وهو يتابع ظهور طيفها من النافذة, لا يهدأ له بال, يريد أن يجدها بنفسه لا أن يخبره أحمد بمجيئها, فصار يحافظ على وجوده لوقت متأخر, يخرج كثيرًا من مكتبه لتفقد الأحوال عله يلمحها بين الموجودين, أكبر ما يخشاه أن تأتي وترحل دون أن يعلم, إلى الآن لن يناقش مع نفسه ما الذي ينتابه, لا يعرف إلا أنه يريد أن يراها ليقف معها تلك الدقائق المعدودة التي تشعره أنه إنسان على وجه الأرض لا كنز مدفون في باطنها, ولأن ما نسعى إليه بصدق ننال جائزته بسعادة, قفز قلبه من صدره ما أن لمحها من زجاج نافذته تعبر الطريق, خرج من مكتبه مسرعًا مستديرًا لمدخل الوكالة, لا يريد لأحد ولا حتى هي الشعور أنه في انتظارها, ولما اطمأن لدخولها وأعطائها الورقة لأحمد ألتفت ليوجه نظره إليها ويذهب في اتجاهها.

تمنت ياسمين في تلك اللحظة أن تنشق الأرض وتبتلعها, يمتلك من الذوق ما لا تستطيع معه صده, لكنها لا تريد تلك النظرة الخاطئة التي سيرمقها بها من حولهما, كيف تكون السبب في طرد منعم, ثم تقف الآن لتحادثه, والأهم أنها لا تريد أن تلمح تلك المشاعر المبهمة التي تملأ عينيه والتي لا تظنها إلا عطفًا

- مساء الخير, كيف حالك؟

أشارت بالخير ثم عادت خطوتين للوراء, تراجعها كان كافيًا ليباعد, لكن هناك بعيدًا يقبع ما يأمره بالاقتراب ولا حيلة له فيه, فاضطر للتنازل

- سامحيني توقف حديثنا المرة الماضية على سؤال أتمنى معرفة إجابته  
لكني أخشى أن يضايقك

أشارت له أنها لن تتضايق, لكنها ظلت متأهبة وعلى أتم الاستعداد للهجوم,  
هل سيسألها عن أحوالها المادية ليساعدها بطريقة ما؟ هل يراها تلك الفتاة  
التي سيضع زكاته أو صدقته في يدها ليغتسل هو وتحمل هي وزر  
السؤال؟ إنه لا يعرف معاناتها على مدار عامًا ونصف حتى لا تكون  
محطاً لمساعدة أو عطف ليجئ هو أو غيره فيحتسبها على الذين يسألون  
الناس إلحاقاً!!

- كيف التحقتي بكلية عملية كالفنون التطبيقية وأنت ..... ثم لم يستطع أن  
يكمل ما أراد

جاء السؤال بعيداً عم تخشى, فالتقطت أنفاسها وهي تشير  
- خرساء

هز رأسه أسفاً ألا يكون جرحها, فأشارت له أن لا مشكلة, ثم تبعها  
إشارات كثيرة متتابعة لم يستطيع تمييزها, رفع كفه مشيراً  
- رويداً حتى أفهم

بدأت في تهدئة إشاراتها, بينما نبضات قلبها ترتفع!! تلك الوقفة تقربه منها  
وهو ما لا تريده وما لا تستطيع إيقافه

- فهمت أنك لم تولدي هكذا, وأن هذا حدث قبل عام ونصف بعد دخولك  
الكلية بثلاث سنوات, وبحسبة بسيطة أنت الآن في السنة النهائية

هزت رأسها بالموافقة, وظهرت في عينيها شبح ابتسامة جعلته يتجراً

- هل يمكن أن أعرف سبب ذلك المرض المفاجئ؟

لم يكن يعلم أن سؤاله كلمة السر التي فتحت طاقة الجحيم فهبت نيران  
الذكرى التي جاهدت طويلاً لتهدئتها, نظرت إليه نظرة طويلة تساقطت  
معها دموع غزيرة, فبدت كسماء تمطر بعد غيوم كثيف, ظن عماد وهو

ينظر إلى عينيها أنه سيرى البرق ويسمع الرعد من شدة بكائها، ألقت برأسها لأسفل وأضافت إلى صمتها صمًا آخر، تجمدت في مكانها كقطعة باكية من الصخر، حاول أن يتدارك فعلته التي لا يعلم جنايته فيها، لكنها بابتعاد أعلنت انتهاء الحديث معه، لقد ألمها، فتح جروحها التي حاولت طيلة عامين وأكثر أن ترتفع فوق ألامها المميتة ونصلها الحاد بمفردها، فلم يعد لها في الحياة تلك اليد القوية التي تمتد لتنقذها من بئر أحزانها، لم يتبق لها إلا أمها التي تربت على كتفها وتشاركها قدرها بهدوء.

جاء أحمد في وقته جذبت الكيس من يده وانطلقت بسرعة قالت الكثير

- ما الذي حدث؟

رمقه عماد بنظرة مشتتة، ماذا سيقول؟

- لا أعلم يا أحمد، لكن تلك الفتاة وراءها حكاية حزينة، حاولت أن أعرف منها لأساعددها، لكنها ..... ثم تنهد تنهيدة خرجت من أعماقه ليكمل

- أعتقد أنها رافضة لأي مساعدة وتعتبرها شفقة لن تقبلها على نفسها..... قالها ثم أدار ظهره لينصرف، إلا أن أحمد تبعه حتى سيارته، يبدو عليه أنه مُحمل بما يريد قوله لكنه متردد

- ما الأمر يا أحمد؟

- تعرف يا حاج أنني لم أتزوج إلى الآن، لم أجد الفتاة التي تمنّاها قلبي، لكن ..... ثم صمت خجلاً وعماد يرقبه ولا يتوقع ما سيكمل

- ما رأي حضرتك في أن أتقدم لتلك الفتاة؟

بُهِت عماد من الفكرة التي نزلت عليه كالصاعقة، وتنازعت عليه أفكاره، بماذا يجيب؟ هل يصرفه عنها لأنه لا يتناسب مع مستواها التعليمي حتى وإن تناسب مع مستواها المادي؟ لكنه لا يعلم عن قسوة ظروفها ما يجعله يحرمها من فرصة الارتباط برجل في إخلاق أحمد وتدينه وشهامته، قد توافق لسبب ما لا يعلمه، كما أن مشاعره تجاهها لم تستقر بعد

- هل ستتزوج فتاة لا نعرف عن أصلها وحالتها شيء يا أحمد؟

أسرع أحمد بلهفة تُنبئ عما يجول بقلبه أوجل عماد كونه يسعى ليطفئها  
- عندما نفاتحها سنعرف, لكني أريد مفاتحتها أمامك حتى لا تظن بي سوءاً  
- أحمد, أنت لست ابن الوكالة ورئيس عمالي فقط, أنت أخي الأصغر  
ويهمني أمرك كفرد من العائلة, هل طلبك هذا شفقة على حالها؟

- شرف لي أخوتك يا حاج, لكن ليست الشفقة هي من تحركني, البنت  
أخلاقها لا توصف وأنا أهتم لهذا في من ستدخل بيتي, لا يهمني وجه أو  
جسد, يهمني الروح والأدب, ومواقفها منذ ظهورها تشيد بهما, لم توافق  
على مداعبات منعم, لكن حزننت لطرده, لم تقبل كرامتها تخفيض, حتى لم  
تقبل دخول مكتبك لفض المشكلة, هادئة ورقيقة وطيبة, وما الذي سأتمناه  
أكثر من هذا في امرأتي, أحمل أنا عنها همّها وتحمل هي عني شقاء العمر  
هز عماد رأسه بالموافقة

- عندما تأتي المرة القادمة سأرى ما الذي يمكننا فعله

تهلل وجه أحمد, شكره وانصرف وهو لا يدري أن مشاعره كانت كالوقود  
الذي ألقاه على قلب عماد فأشعل فيه نيران غيرة لم يتوقع نموها بداخله,  
التهب وجهه بها فانكشف الغطاء وشعر أحمد بما يحاول عماد ستره,  
فداعبته أفكاره محدثاً نفسه

- في كلام الحاج عماد ما لا أفهمه لكنه يبدو مختلفاً, منذ متى وهو يتكلم  
مع زبائن الوكالة ويهتم لشئونهم؟ وهل توقف الفقر عندها لتحظى بعظيم  
اهتمامه أم لأنه اجتمع مع الصمت؟ حتى لو كان غرضه مساعدتها فمن  
الواضح أنها لن تقبل وستعتبرها شفقة وعطف لن ترضاها كرامتها, فهل  
من الممكن أن يكون اهتمامه بها لذاتها؟ أعني أن الحاج عماد ليس سعيداً  
مع تلك المرأة التي تتعالى على الجميع وهذا لا يخفى علي, لكن لماذا تلك  
الفتاة بالذات؟ ما الذي أثارته في نفسه خرساء مسكينة شقت عليها الحياة  
بنقلها ولم تنثيره غيرها, هل ضاقت عليه الدنيا فلم يجد أمامه إلا الفتاة التي  
تمناها قلبي ليهتم هو بأمرها!!

لكنه سرعان ما نفّض عن ذهنه تلك الأفكار العقيمة, وعاد لقلبه الذى يحب عماد ويحترمه, ولما لا وهو الذى يعامله مثل أخوه الصغير ولا يبخل عليه بعزيز أو غالى ويأتمنه على ماله وبيته, نكس له بيت أبيه الذى كان على وشك الانهيار على رأسه وبنائه له على أحسن ما يكون, هو الذى يدفع عنه مصاريف علاج أمه الشاقة, فخجل من أفكاره الأنانية

- سأحاول المرة القادمة فهم ما يدور دون أن يلحظ, فإن كان يهتم بها لنفسه فسأترك له السباق قبل بدئه وأتنازل له عن الجائزة عن طيب خاطر.

خرج عماد من الوكالة وأفكاره تصارعه وتكيل له لكلمات خبيثة لا يستطيع أن يتفادها, لماذا تسرع وسألها عن سبب خرسها؟ كان يمكن أن يتمهل حتى تتوطد علاقتهما أكثر من ذلك, لقد خسرها!! كم يخشى ذهابها بلا عودة, وقتها ستأخذ معها قطعة كالتى أخذتها أحلام, كان وقتها ما زال فى أول عام من كلية الهندسة, عاش فى عينيها أرقى قصة حب يمكن أن وجود الزمان بها على اثنين, فالبرغم من ريفيتها وتعليمها القليل وفقرها إلا أنها كانت راقية النفس, صافية القلب والمشاعر, تعلم من داخلها أنه من المستحيل أن يكون لها وبالرغم من ذلك أعطته قلبها وهى تعلم أنها ستحيا بدونه ما تبقى لها من عمر, رفض أبوه كل محاولات إقناعه بالارتباط بها, بل زاد على ذلك بطردها وأبوها من الوكالة, ليستيقظ يوماً ويفتقد ريحها فى أى مكان, فى البيت حيث كانت تساعد أمه وفى الوكالة حيث كانت تساعد أباه, ظل طيفها يطارده طويلاً, تمنى أن يلقاها ولو للحظات ليرى عينيها ويمسح عنها الحزن الذى يعلم أنه استوطنها, لكنها اختفت وتركت له ندبة لم تستطع السنوات الذهاب بأثرها, لن ينكر بعد أن خاض الحياة وعاركها أن أبيه كان محقاً فى رفضه, لكن ما لم يكن محقاً فيه هو إصراره على ارتباطه بمريم, كانت الأبنة الوحيدة لأبيها موظف الضرائب الذى تعرف إلى أبيه عن طريق العمل, ثم توطدت علاقتهما فكان لا يمر يوماً إلا ويلتقيان, أصر أبوه على خطبتها وهو فى نهائى الكلية حتى يمحو من رأسه ذكرى أحلام, لم يستطع عماد وقتها الوقوف فى وجهه وإثارة المشكلات لمرض أمه المفاجئ الذى مزق الجميع, تمنى عماد نوبان



المسافة التى فصلتهما فى البداية, لكنها ساعدت فى زيادتها لا فى تلاشيها,  
فهل ستذهب ياسمين كما ذهبت أحلام ولن تعود!!

\*\*\*\*\*

يقود سيارته وهو لا يفكر إلا فيها وفى ذلك الألم الذى سببه لها, الندم يلتهم قلبه, كل ما يريده بضع دقائق ليصحح ذلك الخطأ الجسيم الذى ارتكبه فى حقها, دخل بيته لا يرى ولا يسمع, تجمدت صورة عينيها الدامعتين فى مقلتيه, ويتردد صدى صوت أنينها الهادئ فى أذنيه, اتجه إلى غرفته مباشرة ملقياً بمريم وتعليقاتها السخيفة وراء ظهره لتهب عليه عادة بنسيمها الرقيق, أحاطته بيديها الحانية كأنها أم توشك أن تهدد وليدها

- لست بخير, ما بك؟ هل تشكو ألماً؟

تحصن عماد بابتسامة خافتة لم تتر وجهه كعادة ابتساماته

- أنا بخير, كيف حالك أنت وحال دراستك؟

- بخير, أريد استئذاك فى الذهاب غداً للوكالة والمرور على عمتي دنيا,  
وبالطبع لن تتركني, وسأتناول غذائي معها

- هل تعرف دنيا بأمر ذهابك؟

- لا, أردت موافقتك أولاً

- فلنجعلها مفاجأة, سأنتظرك فى الوكالة وسأوصي بأكلة سمك, عمك دنيا  
تعشق السمك

تلك الزيارة لم تأت فى الوقت المناسب, ستسأله دنيا بلهفة أم عن تغير حاله, ولن تتركه إلا وقد اعترف بكل ما يجول فى صدره, لكنه لا يريد أن يخنق روح عادة التي ابتهجت باتفاقهما, أخذت عبيرها ورحلت وتركته ليمحو بسمة كاذبة من على وجهه ويعود لجموده وضيقة.

لكن أي ضيق هذا الذي يستشعره مضاهاة بما يعتمل بصدرها, لم تتمنى من الحياة فى تلك اللحظات التي أدارت فيها مفتاح باب الغرفة إلا أن

تمهلها فقط وقتًا للحزن, لتلقى بجسدها الواهن فيحتضنها فراشها دقائق  
تطلق فيها لدموعها العنان, لتغلق باب العذاب الذي فتحه سؤاله ولن تستطع  
كالعادة إلا مواربته, إلا أنها الحياة أبت إلا أن تعاجلها بألم أكبر!!

\*\*\*\*\*

سمعت ياسمين أنين والدتها التى حسبتها نائمة, هرعت إلى أحضانها  
تتلمس ما بها, لتجدها في حال يرثى لها لا تقوى على التقاط أنفاسها,  
وجهها أزرق شاحب, روحها تتصارع مع صدرها يكاد ينشق لتخرج منه,  
التقطت ياسمين زجاجة الدواء إلا أن أمها أمسكت بيدها

- لم يعد له داعي, أرى الغاليين حولي يفتحون أذرعهم لاستقبالي.... ومن  
وراء دموع الرحيل أكملت

- تعلمين أنني أنتظر تلك اللحظة منذ ما حدث وسعيدة بها, تعاستي تكمن  
فى فراقك وأنت بمفردك, أدعو الله أن يردك ويحفظك من كل سوء ....  
ثم انتهت كلماتها فى الحياة بالشهادة واستسلمت لأمر الله

وقفت ياسمين أمام جسدها لا تستطيع الحراك, فقدت الملجأ الوحيد لها فى  
هذه الحياة, رحل الحزن الذى كانت تدفن رأسها فيه وتنسى ألماها, قُطع  
الحبل الوحيد الذى كان يصلها بالأمل, فهل للموت قلب ترجوه أن يجمع  
روحهما متعانقتين إلى لقاء الأحباب.

التف حولها الجيران وأهل الشارع ولم يتركوها إلا وقد استقرت أمها فى  
مثنواها الأخير, باءت محاولاتهم المضنية بالفشل, لم تقبل ياسمين جنيهاً فى  
إكرام أمها بعد وفاتها كما أكرمتها وعفتها عن السؤال حية, لقد عاشت  
عزيرة ولا بد لها أن تموت كذلك, دخلت غرفتها تجر أقدامها التى ما عادت  
تقوى على حملها جرأاً, ولأول مرة تشعر بذلك الصمت الذى غزل لها ثوباً  
فضفاضاً, لقد أصبح خرسها إجباري!! صدمة فقدانها لآخر فرد من أسرتها  
سحبت من روحها ما تبقى من أمل, وأى أمل هذا الذى ستشده فى تلك  
الحياة الفارغة الواسعة التى ضاقت عليها, فاستكانت فى حجرتها تنتظر

الزائر الذى لم ينقطع عنها إلا بعد أن أخذ كل أحبابها, فأين هو الآن منها لتستريح .

وبينما كانت تُحصي ما تبقى لها من جنيهاات ستحيا بهم على الكفاف, كان عماد يقف على باب دنيا هو وغادة يحمل في يده أطباق السمك والجمبري والأرز, ابتهج وجه دنيا وجرت الدماء في قلبها فتوردت وجناتها عند رؤيتهما, لكن ما ألتقت عينيها بعينيها التي ما زالت ذابلة انسحب من وجهها الكثير من نور الابتسام, وبينما انشغلت غادة مع أولاد عمتهما في تجهيز منضدة الطعام ما بين شغب وصخب وسخرية وضحكات, كانت دنيا تنزوي بعماد في شرفة بيتها

- أرح قلبي يا عماد وقل لي ما بك

أطال عماد النظر لوجهها بقسمات تردد وعبوس, هل يسر لها بما لم يتحقق هو منه, أم يكتم خبره لحينه

- دنيا, لم أعتد عليك مُلحة

عضت دنيا شفثيها بامتعااض

- ليس إلحاح أو فضول, إنه الخوف

اتسعت عيني عماد من قولها وكست الدهشة تعبيرات وجهه

- الخوف!!!

- نعم, أرى من حالك بركان أوشك على الانفجار وأخشى على بناتك من حممه

عاد وجهه للسكون, محقة هي, تشعر به عن بعد وتفهمه دون كلمات

- لا تخافي, بناتي أغلى ما عندي ولن أعرضهم للاحتراق بما لم تجن أكفهم الصغيرة

\*\*\*\*\*

وكعادة الأحران تبدأ ضخمة, تسد علينا منافذ الحياة, ثم تتقزم لتعشش هي وأفراخها فى قلوبنا, أحتل اليأس قلب ياسمين لكنها اضطرت لاستئناف دراستها, بينما قاطعت الوكالة وجلسة السوق, فمن أجل من ستبيع وتشتري!! مر الشهر الأول منذ اختفائها ولم تظهر بالوكالة, يترقب أحمد وصولها بلهفة ويشعر أن الحاج عماد ينتظرها بلهفة أشد من لهفته وبشوق أحر من شوقه.

الأيام تمر طويلة على كلاً منهما كحبل ليس له آخر, عماد يُمنى نفسه بحضورها وأنها لم تختف, بل سيأتى اليوم الذى ستدخل عليه من باب الوكالة لتجده فى انتظارها معذراً عما سببه لها من ألم, وليعرف سبب غيابها وليعرف أيضاً سبب أهتمامه بها, وياسمين تحاول جاهدة أن ترتفع فوق وحدتها وألامها وفقرها لتنتهى تعليمها الجامعى دون الحاجة للعودة لجلسة السوق, إلا أن محاولاتها ذهبت أدراج الرياح فمشروع التخرج تكلفته فوق ما يحتمل معاش والدها, وما كانت تدخره انفقته فى توصيل أمها لمثواها الاخير, ورمضان يقترب وهى لا تحب جلسة السوق فى الأيام العادية فكيف برمضان!! كما أن تسليم مشروعها سيكون فى هذا الشهر الكريم وستضطر للبقاء فى الكلية أوقاتاً طويلة لتنفيذه, وبالرغم من عدم قدرتها النفسية على افتراش الأرض, اضطرت ياسمين للعودة مرة أخرى لبيع أكياس العطارة, كانت فى طريقها للوكالة تحدث نفسها

- شهر آخر من الصبر, لكنه ليس كأي شهر, كأعظم الجبال لكن يجب علي إزاحته

وما أن همت بالدخول حتى تلقاها أحمد بترحيب زائد على غير عادته

- قلقت عليك, لما لم تأت الشهر الماضى؟

أشارت له بأن ظروفًا منعتها

لم يزد أحمد فلقد عاهد نفسه ألا يسير فى طريقها إلا إذا تأكد أنه خاليًا من الحاج عماد, انتحى جانباً واتصل به

- السلام عليكم يا حاج, وصلت الفتاة التى تحدثت معك فى أمرها

حاول عماد أن يوهم أحمد أنه نسي أمرها, فجاءه صوته

- أي فتاة يا أحمد؟

- الفتاة التي أريد الزواج منها, لم تأت الوكالة طيلة شهرين وأنت اليوم,  
وبعد أذنك أريد أن أخطبها أمامك حتى لا تظن مني تلاعباً

- تذكرتها, أمامي ربع ساعة لأكون فى الوكالة, عطلها بأي شكل

الفرحة تغزل له زوجاً من الأجنحة, أنت أخيراً!! لقد تخيل كل ما يمكن أن  
يفرقه عنها طيلة شهرين مما أصابه بحالة اكتئاب لم تخف على كل من  
يحمل قلب يحبه, وها هو يسابق الريح ليجد نفسه أمامها, لكن كيف  
سيصرف أحمد عن أمر الخطبة التي يصر عليها, حسبه نسيها بعد طول  
غيابها, مشاعر أحمد تجاهها تثير غيرته وقلقه, فأسقط مشاعر الشفقة من  
حسبته, فما علاقة الشفقة بما يشعر به الآن, فلم يتبق له إلا الذكرى  
والحب.

تعجبت وأحمد يضع كرسي بجانبها ويشير بالجلوس

- سيتأخر طلبك قليلاً, ما زلنا نطحن بعض الأصناف, تفضلي ارتاحي

قالها وهو يحاول إخفاء المشاعر المتضاربة التي تجتاحه, دقائق وستحدد,  
إما أن يفتحها برغبته فى الارتباط بها, وإما الصمت للأبد, لم تخف عليها  
نظراته وتصرفاته الغريبة, المشاعر كالمطر هل استطاعت السماء يوماً  
إخفاء الغيمة التي تسبقه!! رفضت الجلوس مشيرة بأنها واقفة حتى ينتهى  
من تجهيز ما أرادت, استاذنها وانصرف فى نفس الوقت الذي دخل فيه  
عماد ليلتقط أنفاسه المتلاحقة عندما رآها, وقف وراءها وبصوت يكاد ألا  
ينطلق ألقى عليها التحية, التفتت ياسمين لتلتقى أعينهم ويرى الحزن الذى  
كساهما, استشعره من أول وهلة كنور الشمس, تلك العينان كانتا حزينتان  
لكن ليس كل هذا الحزن فبادرها بالسؤال

- ما الأمر؟ ما تلك الحال؟

اندهشت ياسمين من شعوره بها وبحزنها, لم تستطع التراجع للوراء, هي مدلاة في طرف حبل الأمل إلى عالم اليأس أوشكت على الافلات لتحترق به, لن تكذب لقد كانت في حاجة لذلك السؤال ليس من أي أحد بل منه, نظرت له بعينين ملوئهما الدموع وأشارت

- ماتت أمي

- سامحيني, لم أفهم

أحمد يرقبهما من بعيد, يريد أن يتأكد حتى لا يخسر أحدهما, معركة نفسه لن يحسمها إلا الترقب

- البقاء لله .... ثم نظر للحاج عماد وهو يكمل

- ماتت أمها

هل يمكن أن تتشابك المآسي بتلك المهارة لتصنع عقد لجيد أحدهما تطوقه بها, هذا ما جال في خاطره فظهر أسف وحزن ملأ عينيه

- البقاء لله

نظر أحمد للحاج عماد يستحثه, انتحى به عماد جانبًا

- ألا ترى حالها, الظروف لن تسمح بمثل ذلك العرض, نعزيها ونخطبها في ذات الوقت!!

وجد عماد ضالته في صرف أحمد مؤقتًا عنها, وعرف أحمد ما أراد!! الحاج يهتم بتلك الفتاة اهتمامًا مختلفًا, عليه الآن أن يرد له أفضاله وكرمه وأن يخرج من رأسه فكرة ارتباطه بها بالرغم من إلحاح تلك الفكرة عليه, سيجازي معروفه الذي يطوقه بقلبه

- أمرك يا حاج, هل تعرف, أشعر أنني تسرعت في تلك الفكرة, وأن الفتاة ليست المناسبة لحالي

ابتهج عماد بتخلي أحمد عن رغبته, لن يضطر لتحمل الغيرة, لن يستدعي الأعداء ليصرفه, استدار أحمد بظهره وقلبه عنهما ليفسح الطريق, وحيث كانت تنتظر اقتراب بكيانه كله

- سامحيني, آخر مرة ضايقتك بكلامى

هزت رأسها بأسى وهي تشير بالموافقة

- تضايقت حقًا, لكن حزن أكبر شدني وأنساني

الكلمات تصعد على شفثيه ثم تنتحر بحبل التردد, يريد قول الكثير قبل أن يفر الوقت وتدير ظهرها وتنصرف, قد يفقدها ولا تتيح له الحياة تلك الفرصة الغالية مرة أخرى

- سأصدقك القول, أريد أن أتكلم معك بمنتهى الصراحة لكنى أخشى سوء الفهم أكثر مما أخشى الصد

هذا ما تتمناه, تريد أن تعرف ماذا يريد, فعاهدته على الاستفسار عن ما قد تسئ فهمه

- نقابل في الحياة من نهتم لأمرهم ونحن أنفسنا نجهل السبب, نتساءل ونتساءل ويبقى الفيصل فى الأمر أن هذا ما حدث!! ليست شفقة كما تظنين, وفي نفس الوقت لا أريد خداعك, أنا متزوج وأب لفتاتين, لكن هناك حبل يربطني بك, لم أرك لكنى أو من بتلاقي الأرواح قبل الوجوه, هل أحتاج لتفسير أكثر

أشارت بالموافقة وعدم الحاجة لتفسير, كيف ستطلبه وهي ذاتها تشعر بما يقول, لكنها أقنعت نفسها أن مثلها لم يكتب عليهم إلا اللهث بعدد دقائق أعمارهم, والحب ما هو إلا رفاهية لا يمتلكون أثمانها, قطع عماد أفكارها

- إذا .. اتفقنا على أمر أخيرًا

ظهرت ومضة ابتسامة خجل في عينيها أسعدت منه القلب الذى شقى طويلاً, ابتعدت بهما ليكمل

- اكدي لي اتفاقنا

تبدلت نظرتها إلى خوف في لحظات وأشارت مستفسرة

- لمَ الخوف يا ياسمين؟ أريد منك الثقة, كما أريد أمراً آخر ولن تعارضيني

صمتت لكن عينيها تقول الكثير

- لا أريدك أن تبيعي العطارة مرة أخرى, هذا هو الإثبات الوحيد, أيام قليلة جداً وستصبحين نفسك, أنس أمر العطارة واجتهدي في دراستك لتحصلي على تقدير مناسب

بدأ بفهم الكثير من إشاراتها

- لن أستطيع, المشروع مكلف

تمهل في كلماته, لا يريد فرارها الذي سيحطمه

- تمهلي في تفكيرك, سأستأذنك في أعطائك المبلغ الكافي لمرور تلك الشهور القليلة الأخيرة

همّت لمقاطعته لكنه رفع كفه أمام فهمها

- شرحت لكِ وأعتقد أنك على قدر كبير من الذكاء, أتمنى أن يكون التفاهم سيد الموقف, العوائق كثيرة ولنسنا بحاجة لعوائق إضافية, سنقع في منتصف الطريق وهذا ما لا أريد, سيكون المبلغ على سبيل القرض وسترديه من عملك كمصممة بعد التخرج, هل سيرحك هذا؟

ما سر هذا الشعور بالثقة الذي يتسلل لها خُفية ولأول مرة تجاه أحد؟ لأنه صريح لدرجة الإطمئنان, لم يخدعها بل أقر أهتمامه بها وفي ذات الوقت بعدم معرفته للسبب, أخبرها أنه متزوج وأب, أم لأنها تشعر بأنه يلبس عباءة واسعة من الرجولة تحمي كل من حوله, وها هو يفسح لها مساحة تحتاجها بشدة ليغطيها عن عيون البشر التي أرهقتها واضطرتها يوماً لارتداء النقاب لتختبئ خلفه, شعرت باليد القوية التي تمننتها دوماً ترفعها



من بئر الاحزان ودوامة الذكريات اللذين اغرقاها فى ظلماتهما, ولما طال صمتها أكمل

- أتمنى أن يكون صمتك علامة الموافقة يا ياسمين

أشارت بالموافقة فأثار وجهه وتنهد تنهيدة ارتياح

- متى أنتظر ك غداً أمام باب الكلية؟

أشارت ياسمين علامة الثالثة والنصف

- موعدنا غداً, وأسرعى بالانصراف قبل مجئ أحمد

عاد أحمد ليجد مكانهما قد خلا منهما, دخل المكتب يُظهر التعجب, لا يريد أن يشعر الحاج عماد ولو للحظة أنه لاحظ وفهم, هكذا علمه أبوه كيف يرد معروف الستر بالستر

- لقد جهزت لها الطلبات, عدت فلم أجدها

- تركتها ودخلت المكتب, لكن لماذا رحلت قبل وصولك؟

- تلك الفتاة حساسة بصورة زائدة, عليها تضايقت من تأخري

هز عماد رأسه بلا مبالاة, همّ أحمد بالخروج إلا أنه استوقفه

- أرسل لسعيد الجزار, أريده

يعرفه جيداً, يعبر عن سعادته بالذبح لله, لقد وصل لقلبها, سعادته غمرت أحمد بفرحة, رفع رأسه شاكرًا لله لأنه استطاع أن يرد له بعضًا من فضله, ولأن الله منّ عليه بالرغم من فقره بتذوق طعم التضحية الشهي.

وقف عماد أمام الوكالة وسعيد يمارس عمله فى ذبح العجل وتقطيعه, وفرحة الفقراء تملأ عيونهم فتتعاكس نورًا فى قلبه, سيشعلون مواقفهم وسيطلق بخار اللحم فى بيوتهم الصغيرة الفقيرة التى قد تحوي حبًا وحنانًا أكثر مما يحويه بيته الواسع الفخم, ذلك هو التعبير عن الفرحة التى ولدت

فى قلبه بموافقتها على ما أراد, وهذا لا يعنى إلا أن مشاعره الخفية فى  
اعماق قلبه ما هى إلا حب عميق.

\*\*\*\*\*

حمل أحمد كيسين كبيرين من اللحم لسيارة عماد كما أمره, لم تصدق دنيا  
عينها التي اكتحلت برؤيته, احتضنته بشوق وحنان لا ينضب مهما رآته,  
كالنهر الذي لا يجف مهما كان عطاؤه, لكن شوقها دومًا كالسحاب الدافئ  
محملًا بالدموع

- هل يجوز هذا يا عماد؟ عادة تصلني أكثر من أبيها!!

- تعلمين أنه عندما يأخذ مني القلق لا أحب أن أثقل على أحد بضيقى

ابتسمت دنيا ابتسامة خبيثة وهي ترفع حاجبًا عن آخر

- لكن من الواضح أن القلق زال والأمور سارت كما تريد

ملأت الدهشة وجهه بابتسامة

- من أين عرفت يا دنيتي الماكرة؟

علت ضحكتها وهي تضع كأس العصير أمامه

- ذلك اللحم هو الدليل, ثم ابتسامتك التي تنير وجهك... ثم غمرت له  
بطرف عينها لتكمل ... ولمعة عينيك التي جاءت من هنا .. ثم أشارت  
لقلبها

لم ينقذه منها ومن معرفتها بأحواله حتى قبل أن ينطق إلا خروج ابناؤها  
ليرحبوا بخالهم العزيز ووصول الحاج جلال, فرحتهم بمجيئه زادت  
نشوته, ذلك هو يوم السعادة, عجيب أمر الحياة تكيل لك لكلماتها مجتمعة  
وتمنحك السعادة دفعة واحدة, لا مغيب عندها, إما ضياء وإما عتمة قاتمة!!

لم تستطع دنيا إبقاءه لتناول اللحم التي أسرع في إعداده, ارتفعت رائحته  
وقد ارتفع كفه ليدق جرس جنات التي استقبلته بترحابها وصوت دعواتها  
الذي يملأ قلبه شوقًا لأبيه وهي تتلقى منه كيس اللحم

- لا حرمنا الله منك يا عماد, ولا من دقة كفك على بابنا

اتسعت ابتسامته وتوردت وجنتاه خجلاً

- لم أفعل شئ يا جنات

- يكفي أنك تهتم بمنصور كولد لك, أطمئن عليه فقط لوجودك

- قلت لك مراراً, منصور منا, لا يفرق عندي عن أي أحد من أبناء العائلة,

شجعيه أريده ألا يقل عن أبناء دنيا لا في مجموعه ولا كليته

أكد على منصور وهو ينزل أولى سلالم البيت الأهتمام بالذاكرة, فالامتحانات تقترب والثانوية العامة سنة حاسمة, ولم ينس أن يعده بهدية ضخمة إن حقق له ما يتمناه بدخوله كلية الهندسة, لم تقلح محاولاتها هي الأخرى لبقائه, يشعر أن جسده امتلك جناحين لا يبقياه أرضاً, يرتفعان بجسده فيشعر بخفته, لن يسعه مكان ولن يحتوي سعادته قلب, كل ما يتمناه رؤيتها, لقد عرف أن ما يربطه بها لا شفقة ولا ذكرى بل هو حب طاف وجال وأخذ جولته الغامضة ليستقر عنده أخيراً, لكن ترى هل كتبه في دفاتر السعداء أم المعذبين .

\*\*\*\*\*

لم يكن وحده من امتلك تلك الأجنحة!! لقد شعرت ياسمين من فرط سعادة أنها دودة تشرنقت طويلاً وها هي تستعد بكيانها كله لأول رحلة طيران كفراشة جميلة ملونة, دخلت حجرتها لتنظف كل ما حولها وتعيد ترتيبه بعد إهمال فانتظم داخلها المنقلب, روت الزرعات التي أوشكت على الجفاف فانتعش قلبها الذي ظمأ, قبلت زهراتها واستنشقت مع عبيرها عبير الحياة, لم يفسد فرحتها إلا فكرة واحدة, هل أحببتها الحياة فجأة بعد كراهية فغزلت لها ثوب فرحة, تراه بعينيها اليوم مطرزاً مبهجاً لكنها تخشى ارتداءه!! هل عليها البقاء في ثوب الدودة والأحتماء بشرنقتها؟ فما الذي يدريها أن تلك النسومات ما هي إلا ضحكات الحياة التي ترقبها الآن من بعيد بخبث, تنتظر فقط أن ترتدي الثوب تتركها عارية حتى من ثوب الفقر!!

وبينما هي تعارك مخاوفها, دخل عماد بيته وهو فى قمة السعادة, لم ينتف ريش بهجته بقسوة ليوقة أرضاً إلا صوت مريم تتهم على الأزهر وأهله

- لماذا تأخرت فى الأزهر اليوم يا حاج عماد؟

رمقها بنظرة صبر طويلة, لو علمت آخرها لما لفته حول رقبتها

- ذبحت عجل, أخذ وقتاً لتقسيمه وتوزيع لحمه

- لا ينقصك إلا الشيشة ليكمل دور المعلم عماد

ارتفعت ضحكة غيظ من بين شفثيه

- ومن قال لك أنى لا أشربها هناك؟

استشاطت مريم غضباً لتلك السخرية والنبرة المستفزة

- لم يتبق فى صدري صبر, لم أعد أحتمل رائحة الأزهر وأهله, العطاره..

دنياه.. جنات.. منصور .. ارتفع بمستواك يا باشمهندس

عقدت الدهشة وجهه وزملته بقناع الكراهية بمجرد ذكر أخته وزوجة أبيه وولدها بتلك الطريقة المتعالية التي خلت من أى أدب

- ارتفع!! ارتفع عن أهلى!! أهلى هم الجسر الذي ارتفعتى عليه فنقلك من السيدة زينب وحواريها إلى مدينة نصر ونواديها, رحم الله والدك ووالدتك كانوا من أطيب الطيبين لكنهم لم يفرقوا عن دنيا وجنات فى شئ, على العكس دنيا أباه هو من نقلك تلك النقلة التي رفعت مستواك وأنفك على الجميع حتى ابنته, متى ستتعالين علىّ أنا ايضاً؟

زلزل صوته الفيلا فشعرت أنها ستسقط فوق رأسها, شعرت بالبركان الذي فتحت فوهته ولن يخمد أى كلام, لقد انتشرت حمم الغضب وأسرعت به إلى غرفته, جهاز حقيبة صغيرة ثم نزل مسرعاً, لم تغلج معه كل محاولات مريم لاستبقائه, لم يكن الطريق الذي يسلكه يومياً إلى بيت أبيه هو ذات الطريق, لقد مر عمره بأكمله أمام عينيه, دخل بيت أبيه الذى يحمل كل

ركن من أركانه رائحته ورائحة والدته, القى بجسده على سريرهما أمام صورة والده

- على قدر ما أحببتني, على قدر ما آذيتني بتلك المريم التي لم تمنحني إلا النقص, نصف ضائع لم يكتمل بامرأة, كفاحنا معًا بناء ارتفعت هي عليه ووقفت اليوم لتتأمل لجميعنا من علي

نظر إلى صورته طويلاً بعتاب محب, تنهد تنهيدة طويلة واستسلم لسبات عميق لم يحظ به على فراش الشوك الذي تشاركه مريم فيه.

\*\*\*\*\*

أمام كلية الفنون التطبيقية ينتظر عماد, يدب في جسده شباب امتصته الحياة بلا أي نبتة حب, رؤية الطلبة والطالبات ذهاباً وأياباً ردّ له ذكرياته الجامعية الجميلة, ارتسمت على وجهه ابتسامة احتاجتها روحه المرهقة, ظهرت أمام باب الكلية فتاة منتقبة تحمل بين يديها أكلسير كبير يضم مجموعة من أوراق الرسم, ملابسه محتشمة لكنها رقيقة وجميلة ليست كالتى ترتديها ياسمين, وما أن عبرت الشارع واقتربت إلا وشعر بروحها, استقبلها بلهفة شوقه لسنوات عمره الضائع ومشاعره النائمة كالأميرة تنتظر قبلة حياة, اللقاء كحلّ عينيها بكحلّ الخجل, فتح لها باب السيارة

- تفضلي

أشارت ياسمين بالرفض

- هل سنتحدث هنا فى الشارع!! سنجلس في مكان عام, احتاج للكلام معك

ترددت ياسمين كثيراً قبل الموافقة, لكنها فى النهاية امتثلت لما أراد, قد تكون فى احتياج له ولما سيبدله معها من كرم أخلاق, لكنها لن تنكر أن إرادتهما تشابهت, تشعر معه بالحياة تدب فى أوصالها الميتة, بالأمل ينسج من خلاياها نسيج شوق لكل كلمة سيرويها بها ليلون ذلك النسيج بألوان الورود والرياحين الخضراء.

انطلقت السيارة وعماد لا يدري, هل هو من يقودها أم هي من تقوده إلى قدر جميل خبأه الله له بين ثنايا الألم, تغزوه مشاعر رقيقة كم مر من وقت لم يستشعرها!! معاني صامته لكنها أجمل من كل ما قيل بين اثنين, توقف بسيارته أمام نادى نقابة المهندسين بالزمالك, لم تشعر ياسمين بتوقفه من فرط اضطرابها, ما هو ذلك الخدر الذى تقع تحته فجعلها استجابت لدعوته؟ تلك الدعوة تلقتها كثيراً وخصوصاً قبل أن تفقد صوتها وتضع النقاب ولكنها ما استجابت قط, فلماذا الآن؟ ونحو من!! رجل متزوج ولديه ابنتان؟ قررت المجاهدة ألا يستدرجها ذلك القرب إلى مشاعر قد تكون الجحيم بعينه, ستصنع بينها وبينه حاجزاً زجاجياً تدافع به عن قلبها الذى أجهده الفراق, فهل ستستطيع؟

لأول مرة تجلس أمامه لتستكين روحه وروحها بعيداً عن العيون, يراها كأنه يراها لأول مرة, ليست تلك الفتاة هى ذاتها التى عرفها هناك فى الوكالة, اختفت ملامح الشقاء والفقر وحل محلها البساطة والرقى, اختفى الانكسار وحل محله إحساس بالثقة, كأنها لا تجد نفسها الضائعة إلا بين جدران كليتها وأوراقها البيضاء التى تضع فيها خطوطها لتعبر عن هويتها الحقيقية التى قد تتوه فى صخب الحياة ومتطلباتها, وذلك ذاته ما هو عليه!! يتشارك الانقسام, فإن كان هو منقسم بين الحاج عماد صباحاً حيث يجد نفسه التى يعرفها بين الأزهر وناسه والمهندس عماد مساءً فى مدينة نصر حيث تتوه صورته الحقيقية, فهى أيضاً منقسمة بين ياسمين بائعة العطارة وياسمين الطالبة التى توشك أن تصبح مهندسة, وإذا كان هو قد أدار هذا الانقسام بجدارة, فهى بما يراه الآن أدارته باحترافية, سقطت شمس العصري على وجهها ليلحظ عينيها العسليتين يغطيها حزناً عميقاً, لكنهما لا يخلوان من بريق جذاب ينبئ عما تحت النقاب من براءة.

لاحظت ياسمين تلك الشعيرات البيضاء التى تغزو رأسه لتعطيه وقاراً فوق وقاره, تزيده رجولة دعمتها بشرة خمرية وعينان سوداوان واسعتان وشارب أسود وذقن تبدو دوماً كأنها تكاد تنبت, قطع عماد الصمت بابتسامة رقيقة

- تخيلت يوماً أنني لن أراكِ ثانيةً، عذبتني تلك الفكرة وعذبني أكثر شعوري  
بكوني جرحتك جرحاً غائراً، لكن ليس اليوم كالأمس، الساعات والدقائق  
والثواني ذاتها، لكنها تأت كل يومٍ بجديد

نبرته الرقيقة كطلقات رصاص موجهة للحاجز الزجاجي التي قررت  
اقامته فازدادت تحفظاً خوفاً من تحطيمه فأشارت

- أشكرك لذوقك ومعروفك

شفّت طبيبتها عما يدور في خلدها، هي خائفة، تتحسب لكل إشارة تصدرها  
ولكل ردة فعل لكلماته، فضل أن ينهى أمر المال حتى تنفض عن نفسها  
خوف المساومة، أخرج من جيبه ظرف أبيض كبير

- أعتقد أن هذا المبلغ الذي تستطيعين به اجتياز حاجز الشهور المقبلة

أشارت ياسمين بأنه مبلغ كبير، وأنها لا تريد إلا ما قد تحتاجه فقط

- لا تنسي، مشروع الكلية تكلفته مهما قدرتيها لن يكون تقدير حقيقي،  
استشعري بالأمان يا ياسمين، أسقي نفسك الجافة بالراحة لتنبت زهور  
الإبداع، أريد مشروع خيالي يجعل تعيينك في أي مكان سأرشحك فيه  
فضلاً منا لا علينا، تناولت ياسمين المظروف بخجل شديد ووضعتة في  
حقيبتها، ظهر بين جفניה دمعاً جعل عينيها تتلأأ أكثر مما هي عليه

أشارت

- لا أعرف كيف سأرد لك معروفك..... ثم لم تستطع أن تكمل من البكاء

- وما حاجتنا للدموع، أردت أن أمحو الحزن عنك لا أن نسترجعه، كما  
أني أحسبك أقوى من الضعف

هزت رأسها ومن بين دموعها أشارت

- لا تغرك تلك القوة التي أختبأ خلفها، لقد جمعت كل الضعف وخبأته عن  
عيون البشر وبنيت حوله سور من الجمود حتى لا يتجرأ أحد على التفكير  
في هدمه

وبنبرة حانية لا رغبة فيها ولا طمع طال الوقت دون أن تلمحها فى العيون  
- كل ما علينا الآن أن نهدم ذلك السور الحجري ونخرج ياسمين التي  
بداخله قبل أن تختنق

نظرات التردد تكسو عينيها, كيف تعبر له عن خوفها من اقترابه وروحها  
تسعد بهذا الاقتراب, كيف تطلب منه التخلي عنها وهى تحتاج يده القوية  
وأخلاقه العالية لتستند عليهما وتصعد من الجب السحيقة التي ألقته فيها  
الحياة, لقد أرسله الله لها فى الوقت المناسب فهل ترد يد عون الله ؟

جالت عينيه بين نظرات عينيها ولمحت كل ما يختلج بصدرها  
- أشعر أن الحياة أقامت لك جبل حزن وأرسلتك إلى قمته, فما رأيك بأن  
تمتد يدي إلى يدك وننزلك من عليائه  
أشارت ياسمين باستسلام بالموافقة

- البعد والتراجع والتردد سيهدرون وقتًا غاليًا نحن أولى به من الأحران,  
فهلأ بسطت يدك وعقلك وقلبك لأقوى على جذبك من تلك القمة  
قالها وكأنه دخل رأسها وقرأ أفكارها, ثم مد يده إليها وهو ينظر فى عينيها  
ياسمين تبدو أمامه كالمخدرة حقًا لكنها تعرف حدود الله, سحبت يدها إلى  
صدرها لكنها منحته نظرة كانت أجمل من لمسة يد, لم يقطع ذلك  
الاحساس الرائع بينهما إلا إقتراب النادل, كان عماد من الذكاء فلم يحرجهما  
وقدّرت هي ذلك

- سأطلب أنا الغداء على ذوقي  
بعد انصراف النادل ابتسم لها  
- هل يمكن أن تدخليني فى الماضي الذي يغلي بداخلك, علني استطيع فتح  
فوهته لتنتشر حممه بعيدًا عنك

غابت بعينيها بعيدًا ثم نظرت إليه وقد قررت أن تفتح له خزانة الماضى



\*\*\*\*\*

من أين ستبدأ؟ طال الصمت وانعقد القلب على الجفاف فكيف سيجود  
بالحصاد, لكن كلماته الرقيقة يبدو أنها امطرت على قلبها فتسارعت نباتاته  
المختنقة في الظهور فأشارت

- كانت حياتي بين أمي وأبي وإخواني الكبارين يحيي ويوسف سعيدة, أبي  
كان مدرساً ابتدائياً, طيباً ودوداً, نعيش في شقة في نفس البيت الذي أعيش  
فيه الآن, يحيي ويوسف كانا يعملان في الصيف لتوفير نفقات دراستهما,  
ولم يبخلا عليّ يوماً بملابس وحلوى وأياً مما تتمناه نفس البنات, كنا  
مستوريين ولم نشعر بحرمان

- فهمت كل ما أردتي, معنى هذا أنكم كنتم سعداء

أشارت ياسمين بالموافقة لتكمل بحزن

- تلقى أبي دعوة فرح ابن عمه في القناطر, اصطحب أخوتي لحضوره,  
أمي كانت مريضة وقتها فلم نذهب معهم, وللأسف انقلبت السيارة بهم وهم  
عائدون في حادثة بشعة

وضعت ياسمين يدها على عينيها لتطفئ مشهد أرهاق روحها وقلبها, ربت  
عماد على كفها

- أكملني, أفتحي جرح الماضي حتى لو نزع سنطبيه معاً

هزت رأسها باستسلام لتكمل

- مات والدي فور الحادثة ورقد يوسف ويحيي في المشفى طويلاً في  
غيبوبة تامة بلا حراك, لم يفيقا ولم يفتحا أعينهم ليروا ما حاق بي وبأمي  
من ألم فقدان, الأمل في إفاقتهم هو ما عشنا عليه أنا وأمي تلك الأيام,  
طالت رقدتهما ونفذ المال, ذل الحاجة كان أشد من ألم الوداع المرتقب

الدموع لا تتوقف كعين ماء حبستها الأحجار, وها هي تنزاح رويداً رويداً  
لتنظف ما نبت حولها من أشواك

- لن أصف لك ما تعرضت له في تلك المحنة وذلك الاحتياج من مساومات البشر على كل شئ حتى جسدي!! أقل المساومات وأكرمها كانت مساومة صاحب البيت على شقتنا, كتب لي عقد بغرفة السطح وأعطاني الفارق الذي استطعت به عبور جسر عدم الحاجة

حزنها كان كشبكة عنكبوت امتدت خيوطها لروحه فتشابكت بعينه

- وماذا حدث لأخويك؟

- بعد رقدة طويلة ماتا الاثنين, عدت أنا وأمي نجر عذابنا إلى غرفة السطح, هي وقعت مريضة قلب, وأنا افقدتني الصدمة قدرتي على الكلام

أراد عماد أن يبعدها ولو قليلاً عن حمم البركان الذي لم يتوقع لهيبه

- في أي عام دراسي كنت؟

- في العام الثالث, وكان المتبقي عامان

- لهذا اضطررتي لبيع العطارة... قالها عماد بألم وهو يبتعد بعينه ليخفي أنين خاف أن يتحول قطرات دموع

- نعم, لم يكن ذلك الأمر بالسهولة لولا عم إبراهيم جارنا, حماني من أوغاد السوق ولولاه لنهشوا عظامي, انتقبت في بادئ الأمر لأقلل المشاكل التي تعرض لها بسببي

- وهل قلت كما توقعتي؟

هزت رأسها وأشارت

- نعم, حتى اعتدت عليه وأحببته, تلك هي حكاية سنوات من الألم والفقد, لم أشعر فيها إلا أن الحياة كتبت عقدها معي للحرمان ممن أحب, ولا أعلم هل انتهت مدة العقد أم أنه عقد ساري بلا شروط أو مدة انتهاء

قالتها ثم رفعت عينيها المأهولة بحزن العالم لتلتقي بعينه, لقد أنبتت بذور قصتها شجرة أسى عملاقة ظهرت صورتها في مقلتيه, عز على قلبها أن

تكون هي من أنبتتها فقررت أن تقتلعها كما اقتلع يأسها من جذوره, تعالت فوق ألامها وذكرياتها وداعبته وهى تمسح ما تبقى من دموعها

- كنت ستنزل بي من جبل الحزن, فهل أنا من صعدت بك إليه؟

ابتسم عماد لمداعبتها وزاد من ابتسامته أنه أصبح يفهمها ويفهم الكثير من إشاراتهما, واعتبر ذلك بمثابة بداية لذوبان الحواجز بينهما, جاء النادل بالغداء, ليستمتعا بوجبة غداء روح قبل البدن لم يتذوقها أحدهما منذ فترة, هو أخيراً وجد من ملأت فراغ روحه ونفسه وأعادت له ابتسامته, وهى وجدت من يملأ فراغ أيامها وقلبها وأعاد لها الأمل والحياة .

الصمت الذى التزمه بالشفاه ترجمته العيون, فليس بكثرة الكلام تبني العلاقات, فكم من حبٍ ضاع بين الكلمات

أشارت ياسمين بهدوء

- يجب علي الرحيل, تأخرت

- متى سأراك ثانية؟

سرت فى جسد ياسمين رعشة لم تشعر بها من قبل لمجرد سؤاله فلم تستطع الجواب, نعم هي تريد أن تلقاه وتلقاه حتى يمل منهما اللقاء, لكن ما نهاية هذا اللقاء؟ تخشى على نفسها المحطمة والتي لن تحتل ضربة أخرى لتهدى صريعة, قلبها لم يعد يحتمل, لقد فقدت كل الاحباب فهل تبدأ الحب الوحيد المتبقى لها بالفقد؟ فمن هي لترقى لحبه؟ هو يعطف عليها لا أكثر, حتى وإن توهم غير ذلك فلن تكون إلا مجرد مرحلة عابرة فى حياته لا بد لها أن تنتهى, وستنتهى حتما بنهايتها, كانت عينيها تبوح بكل ما يجول فى خاطرها كأنها كتاب مفتوح أمامه لا يشق عليه فهمه

- لا تريدي لقائي ثانية؟ .... أليس كذلك

لم تقو على الرد فابتعدت بعينيها

- لو كان السبب أنه لا يوجد لي مكان بداخلك فسأنسحب فوراً بلا كلمة واحدة, أما إن كان أي سبب آخر فاعذريني, ستكون مخطئة

زاد صمت ياسمين وهى تنتظر إليه بعينين لا تعلم أين تذهب بهما حتى لا يعلم ما يدور بخاطرها, فحسم لها التردد

- اليوم الخميس, سأنتظر ك الخميس القادم أمام باب الكلية فى نفس الموعد, أسبوع للتفكير حتى لا أضغط عليك, ولا أعطلك عن مذاكرتك فالأمتحانات اقتربت, إذا لم تخرجى لمقابلتى فلن تلمحي خيالى يوماً

انطلقا بالسيارة لا ينبث أحدهما ببنت شفاة, الوقت يمر كالبرق على غير عادته, يالا مكر الحياة!! المر تسقيه فى كؤوسها الضخمة والهناء تبقيه للكؤوس الضئيلة, ودعها بالقرب من بيتها على أمل اللقاء الذى أصبح خيطه بيدها, إما أن تصله وإما أن تقطعه, فهل افترقا ؟

\*\*\*\*\*

عماد لا يتخيل أنه فارقها, وإن كانا قد افترقا فقد تبعتها روحه إلى حيث ذهبت, لقد كان يعتقد أن الذكرى هى من حركته تجاهها, لكنه الآن يعلم جيداً أنها ليست كذلك, أين ذلك الأحساس الذى يشعر به الآن وهو رجل فى عز نضجه وخبرته وبكل ما رآه من ألوان النساء, من ذلك الذى شعر به وهو يخطو أولى خطواته ناحية الشباب, ليس بالشفقة ولا بالعطف للظروف القاسية وليس بالذكرى لمراهقة شبابية لأول فتاة تواجدت أمامه باستمرار, هو إحساس أعمق وأقوى, يقينا أن ما يشعر به الآن هو الحب , لكن لماذا هى؟ لم يراها ولم يسمع لها صوتاً لتحرك شيئاً فى نفسه, فهل حركه نحوها كفاحها الذى استشعره فى كل يوم ظهرت فيه فى الوكالة, أم ذلك الحزن الذى يكسو عينيها الجميلة, أم ذلك الصمت الذى شعر أنه أجمل من أى حديث؟ لكن منذ متى ونحن نعلم لماذا نحب !! الحب زائر غامض لا نعلم من أين أتى ولماذا شق صدورنا وعبث بقلوبنا لنحب ذلك دون ذلك أو تلك دون تلك .

سارت ياسمين فى اتجاه بيتها ولأول مرة منذ حادثة شقاءها تشعر بالسعادة تحرك قلبها, كمركب غرق فى الأعماق ويتأهب الآن للصعود, كطائر كسر جناحيه ثم ها هو يحلق فى أول رحلة طيران فى فضاء واسع لا ترى فيه أحداً إلا هو, صعدت إلى غرفتها ليستولي عليها التفكير, هل ما هى فيه

حقيقة أم أنه حلما جميلاً, ولكن ها هو ظرف النقود بين يديها, لقد كان كل شئ حقيقياً, لن تضطر بعد الآن لجلسة السوق وتحمل النظرات التي تدور بين الشفقة والطمع, ستنتهى تعليمها وتجدر العمل الذى يليق بها, والأهم من كل ذلك وجدته!! الإنسان الذى حرك قلبها ومنحها الأمان والأمل والحب, لكنها تخشى فقدته بعد تعلق, اختفائه بعد ظهور, كل الأعمار عمرها قصير وقمر حبها الذى أضاء فى ذلك السواد سيختفي يوماً لا محالة, إن الحب الذى يجدل عماد خيوطه ليربطهما حبلاً تجهل مدى قوته, فإن خذلها وأفلتها ستتحطم كما لم تتحطم من قبل.

أسبوع ليس ككل الأسابيع, أطول من دهر, وأقسى من حجر, وأضل من صحراء, عماد ما زال فى بيت أبيه لا يفكر فى العودة إلى بيته, ولمن يعود؟ لامرأة لا يعنيتها إلا ذاتها, تفقد بداخله كل يوم نقاطها حتى أوشك رصيدها على النفاذ!! الفارق بينها وبين ياسمين كالفارق بين القمة والسفح!! لكن هل ستلبى دعوته بالإرتباط؟ هل ستأتى ليأتى كل شئ ضاع منه معها, أم ستبخل عليه الحياة بنعمة التفاهم والأحتواء, القلق يقتله وهو لا يعرف أن شفرته الحادة مصوبة لعقل ياسمين وقلبها, يوخز أفكارها حول يوم الخميس, مشاعرها تتردد بين الموافقة والرفض, العقل يرفض والقلب يوافق وبينهما تتأرجح النفس, فهل ستلبى دعوة قلبه وقلبها؟ أم ينتصر عقلها وتراجع لتحمى ما تبقى منها؟.

\*\*\*\*\*

هل انهزم القلب أمام العقل فى بدايات الحب؟

خرجت ياسمين من باب الكلية يوم الخميس فى الموعد المحدد لتجده واقفا فى انتظارها أمام السيارة, تبدو عليه مشاعر الالهة والخوف, تقدمت نحوه ليقابلها بابتسامة رقيقة ونظرة حب حانية احتضنتها بدلا من يديه وأغنته عن كل الكلمات, ضمهما مكانهما ضمة أروع من ضمات الصدور الزائقة

- لن تتخيلي مدى سعادتي

أشارت بأنها كذلك, ثم صمتت صمت من يخفي ما يريد قوله

- أكملني ما تريدي قوله

- خائفة؟

- مني؟

- لن أنكر خوفي من الناس, لكنك الوحيد الذى لا أخاف منه, لكني أخاف من الظروف

هز عماد رأسه علامة عدم الفهم

- المعنى الأخير لم أفهمه

أشارت على استحياء

- أخاف من الاقتراب ثم الابتعاد, أنت زوج وأب, ومن المؤكد أن وجودي في حياتك لن يكون مقبول, وأنا اكتفيت من الأحزان, لم يعد في قلبي موضع

- المشاكل موجودة بك وبدونك, أريد أن أخبرك عني الكثير لكني أخشى أن تظنيه كذب أو خداع

أشارت له بأنه ستصدق كل ما سيقول

- لو أعطيت لحياتي مع زوجتي عنوان منذ البداية فلن يكون إلا التعاسة, ... ثم تنهد تنهيدة لا تخرج إلا من قلب اضنته الوحدة ليكمل ..

- لم أختارها بل فعل والدي وأنا استسلمت لإرضائه, وبالرغم من ذلك كان عندي الاستعداد أن تكون المرأة الوحيدة فى حياتي, فأنا لست من النوع الذي يهوى التشتت... ثم نظر إليها مطمئناً إياها

- منذ تزوجت لم تلفت نظري امرأة قط, كل ما كان يشغلني عملي وبناتي واستقرار العائلة التي تركها لي أبي أمانة فى عنقي

استفسرت ياسمين

- ولماذا لم تصبح زوجتك هي المرأة الوحيدة فى حياتك؟

- كلما زاد المال زاد الابتعاد والجفاف, حتى خلّنتي أحيا معها فى صحراء  
لا نهاية لها, لا يرى فيها أحدا الآخر ولا يروي له ظمأ, ارتدت ثوب  
الخيلاء وترفعت به حتى على أهلي وأخوتي, كلمتي الأزهر والوكالة  
يسببان لها الجنون

تعجبت ياسمين

- الأزهر والوكالة!! لكن هذا عملك!!

- لا, أنا مهندس مدني وأمتلك مكتب مقاولات كبير في مدينة نصر, الوكالة  
إرث أبي التي تركها لي وأمنني علي عمالها, هل تظنني أربح منها؟

أشارت ياسمين بالاستفسار

- لا شئ يذكر, لكن عشرين بيت وأكثر من العمال مفتوح بها, بيت زوجة  
أبي وابنها, بيت أختي دنيا, كل ما يهمني أن تظل رزق لكل هؤلاء حتى لا  
يحرّم أبي أجرها

أشارت ياسمين بأنها فخورة بمعرفته لأنه يشعر بقلوب الناس وأحلامهم  
وكم هو نبيل أنه يحافظ على أرزاقهم بالرغم من انشغاله بعمل آخر

رمقها بابتسامة رقيقة نبعت من احساسه بنفسها الطيبة, لقد كان محقا فى  
تقديره, إن روحها تشبه الماء الصافى لبحر عميق يكشف جماله وروعته,  
كم يتمنى أن يغوص فيه ليخرج له درره الكامنة, كم اشتاق لتلك العذوبة  
والتكامل الذى لا يشعر به إلا معها

- لا تتخيلي مدى سعادتي وأنا أتكلم معك, التشابه بيننا يرسم صورة  
متكاملة

نظرت إليه بخجل وأشارت

- وأنا كذلك, لكني ما زلت خائفة

- ولما الخوف, الاحساس الذي يسري بيننا لم يتعمده كلانا, هو شعور حر  
طليق, اتركه يخلق بنا, لكن فى أي وقت تشعري فيه بتغير نحوي لأي

سبب وترغبى بالتراجع أخبريني فقط وانا سأفهم, لكن عليك أن تعلمي أن مشاعري لن تتغير مهما حدث

كانت كلماته الرقيقة ومشاعره الصادقة تقربها إليه رغم المخاوف, ورغم توقع الانكسار إلا أنها استسلمت

- لن أنكر أن ما تصفه هو ذات ما اشعر به, لكني لا أمتلك نفس ثقتك

- فلنسير معًا, الطريق ما زال طويلاً, إما ستزداد فيه ثقتك, وإما عودة آمنة مع انسحابي

لم يصبح اللقاء بعد تلك الجلسة أسبوعياً بل أصبح شبه يومي, لم يعد يتخيل أحدهما كيف يمر يوماً لا يرى فيه الآخر, عماد يعيش حالة الحب بكل عمق وقوة, الساعات التي يقضيها وهو ينظر إلى عينيها كمنع عذب يروي ظمأ سنوات الحرمان, يتمنى أن ينهل منه ويعوض سنوات الجفاف, سنواته مع مريم لم تكن إلا تعايش لم يرق لمعنى الحياة, حتى علاقتهما الزوجية لم تكن إلا أمراً اعتيادياً ثقيلًا بارداً, أين هي من رغبته التي تجتاحه نحو ياسمين, يهفو للاقتراب, لرؤية ملامحها التي يعلم مدى طبيبتها ورقتها, يتمنى أن يلمس وجنتيها وشفتيها, أن يذوب معها في قبلة حب تهب لروحه السعادة ولقلبه الحياة, وليظل عطرها صاحبه اشترى شجرة ياسمين ووضعها في شرفة بيت والده, يجلس بجوارها ليلاً يستمتع برائحة زهورها التي لا تزيد شيئاً عن ذلك الشذا الذي يستشعره معها, ولم يعد يناديها بياسمين بل ..بزهرة الياسمين .

أصوات تصدر من بيت أبيه!! ترى من بالداخل؟

\*\*\*\*\*

لم يتخيل عماد أن يدخل البيت ليجد كبار الأسرة مجتمعين, دنيا وزوجها الحاج جلال, سماح وزوجها الدكتور محمود ومعهم مريم!!

صمت الجميع فور دخوله إلا الحاج جلال, من الواضح أنه هو من وقع عليه الاختيار لإدارة الحديث



- لي عندك حق عرب يا عماد, أأأأ أخوك الأأأر؟

هز عماد رأسه

- أكأأ يا أأأ ألال

- إأأ أأف

رمق مرأأ بأأرة أأأفة وهو أأأأ

- ألة رأأة يا أأأ ألال, ألة رأأة

أأأأ مرأأ بأصوأ أأأ مرأفأ

- وما الأأ لا أأأأ يا بأأأأأأ؟

- أأأأ الصأأ أأأل من أأأأ ما أأأأ من أأأأ بأأة

- وأأأ أأأ أأأأ أأأأ وأأأأ هنا وأأأأ أأأأ أأأأ؟

رمق عماد مرأأل هنا أأأ أأأ الأأأأ والأأأأ؟ ..... أأأأ مرأأ بأأأ

زأأ سأأ عماد وأأأأ أأأأ من أأله

- ما أأأأ لأأ من أأأ, وأأأأ أن هذا الوأأ مرأأ لكأأ أأأ, وأأأ

أأأأأأأ لا أأأأ ما لأأأ أأأأ

أأأه أأأ ألال

- لو أأأأ فأ رأأة كأأ أأأأ يا عماد ما أأأأ أأأ لأأأأ إلى أأأأ

أأأأ عماد لأأأة أأأ ألال, هو أأأ من أأأ مرأأ صأأه به, وأأ هو

أأأأ أن أأأه إأأأ بأل أأأأ, أأأأ أأأأأ ولم أأأأ أأأ أأأ من

أأأأه أأأ أأأأأ

- لأأ من أأأأ, أأأ من أأل كل أأأ إلا صأأأ أأأ

لم أأأأ مرأأ السأأرة أأأ أأأأ, أأأأأ أأأأأ أأأأأ أأأأأ

أأأأ بأأأأ أأأأأ أأأأأ

- ولماذا لا تطلقني ما دمت تعرف الحقيقة

وعلى غير توقع منها أجابها ببرود

- تحت أمرك, في أي وقت تريدان؟

لم تجد دنيا بداً من التدخل لإنقاذ حياة أخيها التي تنقض أمام عينيها

- صلوا على النبي, تذكرنا عادة وغداء

نبرة عماد وطريقته لم تحقق لمريم ما جاءت من أجله, على العكس كرامتها تمزقت أمام الحضور, أعلن ولأول مرة مباركته للطلاق الذي تطلبه كثيراً للتهديد وهذا ما لم يحدث من قبل, فسحبت حقيبتها بعصبية لتقلت من تلك المصيدة التي نصبها لتصطاده لكن من الواضح أنه هو من اصطادها, لقد أطلق عليها سهام اللامبالاة فنزفت دماء كبرياءها على مرأى ومسمع من الجميع, ولم تفلح أيًا من محاولات دنيا وسماح لأستبقائها, ركبت سيارتها والغيط يلتهمها, لا تصدق تلك الإهانة, من يظن نفسه؟ إنه لا يعرفها إلى الآن, هي طفلة أبويها الوحيدة المدللة, لا يُرفض لها طلب ولا يُقال لها لا, كل ما تتمناه كان يأتي على طبق الاستسلام حتى لو اضطر أبوها للاستدانة, والآن هل يظن أنه حطم كبرياءها أمام الجميع فلينتظر وليرى؟ هل تخيل أنها تطلب الطلاق ليوافق وأنها ستستجيب؟ هل يظن أنها ستترك كل هذه الأموال تتسرب من بين يديها لامرأة أخرى تستطيع أن تنجب له ذكر يرثه كما يتمنى؟ ثم هتف لها في أذنيها هاتف, امرأة أخرى!! هل يمكن أن يكون على علاقة بأخرى؟ ثم اطرقت قليلاً تحدث نفسها

- ولما لا, طيلة خمسة عشر عاماً طلبت منه الطلاق بعدد شعر رأسي ولم يستجب, ليس من أجلي بل من أجل فتاتيه, فلماذا الآن إلا إذا كان هناك أخرى بالفعل؟

حاول الجميع بعد خروج مريم تهدئة عماد وإثناؤه عن عزمه في طلاقها, لكن لم تفلح المحاولات, لا يعرف أحد ممن يتكلم طعم المر الذي لا يغادر

حلقة, أليس من حقه أن يلفظ الصبار بشوكة ومراره, وأن يحظى بالقليل من عطر الحياة.

\*\*\*\*\*

لم يعد وحيداً كسابق عهده, روحه المشتتة اجتمعت عند عينيها وبين كفيها, قلبه الذي لم يعرف معنى الاستكانة والسكن عرفه بالقرب منها, ففر بما يحمله من ألم إليها, لم يبحث عنها بل هي هبة الله إليه, جلس أمامها تحكي عينية قبل شفتيه, وهي ترى ما يؤلمه تعكسه مقلتيه فأشارت

- ألا ترى أن الطلاق ليس بحل من أجل البنيتين؟

- لم يعد أمامي غيره, اكتوت روحي بنار الوحدة حتى وجدتك فأطفأتها, يجب أن أزيح رماد حياتي المتراكم لأبني معك حياة لا غبار فيها, أريد أن أشم عطر الياسمين لا دخان الحريق

- والفتاتين؟ .... أشارت ياسمين

أخذ عماد نفساً عميقاً يحاول أن يجمع من الهواء بقايا روحه الممزقة لسنوات

- تحملت من أجلهما الكثير, لن أستطيع أن أجمع بينكما كما لن أستطيع العيش بدونك, المستحيل بعينه هي العودة لما كنت عليه قبلك

- وما الذي كنت عليه ؟

- مجرد موتور يضخ ماء الحياة للجميع بينما هو جماد قابع ينتظر ضغطة زر ليمنح ويمنح دون أدنى اهتمام لما هو عليه ولما يحتاج

- أنا أيضاً لن أستطيع العودة لما كنت عليه قبلك, كهف الخوف والشتات

- أنتظر نهاية عامك الدراسي بفارغ صبر, ليجتمع خوفك وشتاتك ووحدتي وغربتي فنكتمل

وعند قمة الجبل لا تخشى إلا من السقوط, لم يكن الاثنان يعلمان وهما يرفرفان إلى قمة الحب أن هناك من يرقبهما بعيني صقر, راقبت مريم

عماد حتى التقاها, عرفت من حوارهما وإشارات ياسمين أن الفتاة خرساء,  
انسحبت بمنتهى الهدوء وتركت تلك الأحلام الوردية التي لمحتها في  
عيونهم, اتجهت الى بيتها عازمة على قطعها حتى قبل نضجها.

وهناك حيث جلست بمفردها محدثة نفسها تفكر فيما رآته وفيما ستصنع  
- اهْدأِي, لا يجب أن يعرف أحد حقيقة الأمر, ولا حتى أنا, ستنمزق  
كرامتي أمام رعا ع أسرته

حركت قدميها بعصبية وهي تنفخ نار الغليان التي تأجج قلبها, يطير حولها  
شياطين عقلها

- لن أسمح لأحد بهدم البنيان الذي ارتفعت عليه فوق الجميع, ذلك ما  
سعيت إليه وتحملت من أجله ابن بائع العطارة, حتى وإن لم يكن يلزمني  
وجوده يلزمني ما يفعله وجوده, لكن ليس الحل في إيذاء الفتاة فيمكن أن  
تظهر أخرى, ولا إيذائه وقتها سيرثه أخوته معنا لعدم وجود ذكر

وبمجرد نطقها لتلك الكلمة تمايلت شياطين رأسها طربًا, وبدأت تسبح عن  
يمينها وشمالها, تعرض عليها بحور الانتقام والشر, وهي تجدف بمجدافي  
الطمع والغل نحو شاطئ الامتلاك, التقطت هاتفها لتحدث إحدى صديقات  
النوادي

- مساء الخير يا هايدى

- كيف حالك يا مريم؟

- في ورطة, وأريد منك خدمة, هل تتذكري دكتور أمراض النساء الذي  
ذكرتي لي أنه يجري عمليات إجهاض

- نعم الدكتور زياد

ثم ارتفعت ضحكات هايدى

- ما الذي حدث يا مريم

- ما ظننتيه حقًا, اكتشفت أنني حامل بعد هذا العمر, ولن أستطيع السير حتى النهاية

- عندك حق, صعب جدا وخصوصًا بعد كل تلك السنوات, هذا رقمه

أغلقت مريم الخط مع هايدى وهى لا تعرف خطأ محددًا لما ستفعل, لم تهدأ نفسها ولم يغمض لها جفن طيلة الليل, الميراث على وشك التسرب من يديها, من الذى يضمن أنه لن يتزوج تلك الفتاة, من الواضح أنه يحبها فعماد ليس بالرجل اللعوب, ومن الممكن أن تلد له تلك الخرساء الذكر الذى يرث نصف الميراث .. ثم هتف لها شيطانها .. ذكر .. هذا هو حل اللغز .

\*\*\*\*\*

الأسابيع تمر كبساط الريح لتنتهي ياسمين أمتحانات نهاية العام, لم يتبق حتى تصل إلى بر الأمان إلا أسابيع قليلة تنهي فيها المشروع, خرجت من باب كليتها حيث كان فى انتظارها, تلقتها لمعة عينية وابتسامته التي تُخجل الروح منها وتتغش القلب وتورد الوجنات

- حمدًا لله, انتهت الامتحانات, والمشروع لن يكون بصعوبتها

هزت ياسمين رأسها بالموافقة

- نعم, وخصوصًا أنني أنهيت رسومات المشروع ووافق عليه استاذي ولم يتبق إلا التنفيذ

ضمت عينية عينيها وهو يقول

- إذا فلا داعي للتأخير, هذا هو الوقت المناسب

الخجل صبغ وجنتيها حيث لن يرى بلون ورود الحب الحمراء وأشارت

- مناسب لماذا؟

- هل تتزوجيني يا زهرة ياسميني؟

نظرت إليه ياسمين بعيون تملؤها الدموع وأشارت

- أنا ؟

- نعم, ولن تكون يوماً غيرك

اشتدت دموعها ورفعت عينيها المبللة بقطرات الخوف المطمئن

- وتسجن نفسك في صمتي؟

تنهد عماد قبل أن يجيب

- وهل يعلو الكلام على الحب, بعض الكلمات تبني الحواجز وتهدم ود,  
وكما توجد الكلمة التي تبني حياة, توجد الكلمة التي تحطمها, ما أشعره  
معك يعلو فوق أي كلام

وبعد نظرة توجس أشارت ياسمين

- هل أفهم من هذا أن ما جذبك نحوي هو صمتي؟

ابتسم عماد على طفولتها التي بقيت مصاحبة لروحها ولم تتركها

- كيف هذا؟ كل ما أردت قوله أن الصمت لن يكون حاجز, على العكس  
بعد زواجنا سأعرضك على أكبر الأطباء, أهفو لسماع صوتك الذي أثق  
أنه يشبه روحك التي أعشقها

ابتسمت ياسمين وأسقطت عينيها أرضاً خجلاً ثم أشارت

- قبل لقائك كان خرسى قيد يخنقني, سور يفصلني عن الحياة, أعدو  
لاجتيازه لكني ما ألبث أن أجدني خلفه, لكنه لم يعد كذلك, لم يعد قيد بل  
أصبح براح

تعجب عماد من المعنى فأشارت

- سعادتي لم تعد إلا في سماعك ورؤيتك, يكفيني مني العين التي تراك,  
والأذن التي تسمعك

- حالاً سنشتري شبكة ودبلة خطوبتنا, وخلال فترة مشروعك سأعد للزواج, موافقة

- وتخطبني أمام عم إبراهيم وفي بيته

- نعم

- موافقة

لم يكن بجانبها أم لئخرج من بين شفتيها زغروطة فرح, لكنها شعرت أن كل ما حولها يحتضنها ويباركها, اهتزت فروع الأشجار بنسيم البهجة, وارتفعت اصوات عصافيرها شذوًا, تسير بجانبه وكأن الأرض مهدت لخطواتها بساط من الورد والرياحين, لم تعد هي الأرض التي شاهدت جلستها وحيدة منزوية, أفاقت من شرودها على صوته

- ألا يحق لي الآن أن أرى جمال وجهك

هزت رأسها بالموافقة

- في السيارة قبل أن ننطلق, فلا أريد لأحد أن يشاركني حتى في رؤية ملامحك

وفي السيارة نظر إليها عماد بابتسامة أذابت ما تبقى منها, لكنها ظلت ساكنة ولم ترفع نقابها

- سأظل في الانتظار ولن أتحرك خطوة واحدة

وبوحدة وشقاء سنوات رفعت ياسمين نقابها كمن ترفع جبل من على أكتافها, ليرى أمامه ما كان يحلم به ويخطف قلبه, ليس الجمال هو ما أسره, بل ملامح الرقة والطيبة والبراءة التي تكسو وجهها لتصنع منه وجهًا شفيقًا جميلًا

لم ينطق بالكثير لكنه قال كل ما يمكن أن يسعد قلب امرأة في كلمات

- حق لك الانتقاب خوفًا من عيون الناس, يا زهرة ياسميني

لم يصدق عم إبراهيم عينية وياسمين تدق بابه بصحبة عماد لتشير  
- أنت الوحيد الذي في مقام أبي, لك كل الفضل بعد الله في حفظي  
وحمايتي, الباشمهندس عماد جاء ليخطبني منك

ربت الحاج إبراهيم على كتفها

- ألم اقل لك, ستنتهي يوماً كل المعاناة, بارك الله في خطبتكما

أعلنت خطبتهما أمام الجميع, وهناك وسط تهنئة ومباركات أهل الشارع  
شعرت ياسمين بأن حياتها تتبدل من الحزن إلى الفرح, من اليأس إلى  
الأمل, وشعر هو بالسعادة التي كان يبحث عنها تدب في أصاله فينبض بها  
قلبه لتروى عروقه التي ظمأت طويلاً, فهل حقاً عقدت معهما الحياة  
معاهدة الصلح, أم أنها معاهدة ستعقبها الخيانة.

\*\*\*\*\*

العائلة كلها في بيت أبيه كما تعودوا, الجميع ينتظر صوت الأذان بصوت  
الشيخ محمد رفعت حول مائدة الإفطار أول يوم من أيام رمضان, الجميع  
موجود عدا مريم وفتاتيه, حقاً هو يذهب إليهما أمام المدرسة ويصحبهما  
للغداء, لكنه يشفق لرؤيتهما وسط عائلتهما التي لم تقدرها مريم يوماً, كما  
أنه يخشى عليهما من أفكار مريم المسمومة, لكن لم يخف قلقه تلك السعادة  
التي تتراقص كأمواج بحر دري في عينية, وعلى شفثيه ما يريد قوله

- ألمح ما تريد أن نخبرنا به يا عماد

- حقاً يا حاج جلال

تجولت عيني عماد بين وجوههم التي اتجهت نحوه تنتظر ما سيفيض به  
بحره

- خطبت فتاة أحبها من كل قلبي, وسنتزوج هنا في بيت أبي بعد أسابيع  
قليلة

كان وقع الخبر على الجميع كالصاعقة وخصوصاً دنيا



- ومريم؟

- لها كامل الحرية يا دنيا, إما أن تكمل وإما الانفصال, وفي الحالتين لن يتغير في حياتها شئ, ستبقى فى بيتها كما هي, أنا من سأرحل تاركًا لها كل ما تريد

هزت سماح رأسها بأسف

- لكني لا أعتقد أن مريم ستقبل بما تقول, فهي ليست المرأة المسالمة التى سترتضي بما ستفعل مهما كان

- ماذا ستفعل يا سماح؟

- ستحرمك من البنات

قطع الحوار الحاج جلال

- متى ستتزوج يا عماد

- ليس قبل ثلاثة أشهر, البيت يحتاج لترميم وتشطيب وفرش

تمهل الحاج جلال قبل أن يقول

- رأيي ألا تبلغها الآن, اصبر حتى تنظم أمورك, وضعها أمام الأمر الواقع, حتى لا تهدم لك ما تبني

- عندك كل الحق يا حاج جلال, حتى لا أعجل بالمشكلات, لكن علي أن أنبهكم لأمر هام

انتبه الجميع أكثر

- ياسمين لا تتكلم

لم تفهم جنات معنى ما قال فردت

- ما معنى لا تتكلم؟

كان على عماد أن يختار كلماته بدقة

- فقدت أهلها في حادثة, فمنعتها الصدمة النطق, ولن أحتاج أن أقول أن ارتباضي بها أمر شخصي جدًا, لا يحتاج نقاش من أحد

اتفق الجميع على كتمان الأمر عن مريم, وبالرغم من سعادتهم لسعادة عماد التي غابت عن وجهه كثيرًا إلا أنهم كانوا قلقين من ردة فعل مريم, ومتعجبين من اختيار عماد لفاتة لا تستطيع النطق, لكنه كان محقا فهذا الأمر يخصه ولا علاقة لأحد به .

\*\*\*\*\*

أيام رمضان تعدو كالمهرة المتخيلة, لكنها جادت بالكثير, ياسمين لا تفارق الكلية لتتم مشروعاتها الذي بُهر به, كان عبارة عن تصميمات رائعة لمجموعة حُلَى نحاسية ومن الواضح من تصميماتها أنها تتميز بتفوق في ذوقها وفكرها, يذهب إليها يوميًا يتابع معها العمل ويساعدها بأقصى ما يستطيع, يشتري لها كل ما تحتاج من خامات وأدوات, يستمتع بجلوسه معها هي وزملائها, يستقي من شبابهم شباب ومن خفة روحهم حياة, اعتادا على الإفطار سويًا في الكلية, ولينحها سعادة أكبر مما تتحرك في كيانها بوجوده, جاء يوم ليعلن لجميع زملائها أن الإفطار اليوم جماعي على حسابه, يريد أن يعوضها عن أيام الشقاء التي عاشتها, ويمسح عنها الحزن الذي عانت ألامه, أشارت ياسمين

- هل تذكر عندما قلت لي أنك ستأخذ بيدي لأنزل من جبل الحزن

هز رأسه مؤكدًا على تذكره فأكملت

- أنت لم تنزل بي من عليائه فقط, بل صنعت لي جبل سعادة وأسكنتني قمته

ابتسم عماد لتعبيرها, هو لم يفعل شيء بعد

- لم نصل لقمته بعد, قمته هو يوم زواجنا

خجلت ياسمين من كلامه فلم تعلق

- تلك هي السعادة الحقيقية التي اتمناها وأدعو الله ألا يحرمني منها

أشارت ياسمين

- وأنا كمثلك

لم تصل الأيام إلى فرحة العيد لكنها منحت عماد أعيادًا، نجح منصور وحصل على مجموع كبير يؤهله للإلتحاق بكلية الهندسة كما أراد، وصية أبيه التي حفظها بألا يهمل منصور ويعامله كواحد من العائلة، وجنات تكاد تطير فرحًا بنجاحه، هذا ما تمنته وبكت من أجله يوم فقدت زوجها، لكن الله منّ عليها بعماد وأبيه لتريها الأيام ما عرضه قلبها حقيقة، البسمة لم تعد تفارق وجهها وهي تشد على كتف منصور

- شرفنتي يا باشمهندس

فبيتسم منصور الذي يقدر لها كفاحها وصبرها، تزوجت لكن من أجله، عرفت كيف تختار الرجل الذي تجتاز به محنتهما معًا، لم يرق قلبها لرجل غازلها أو شاغلها بالرغم من صغرها وجمالها وقت وفاة والده، لم تلتفت إلا لمصلحته فأوت إلى عباءة أبو عماد ليحميها وهي تصونه من ذل حاجة الأيام العجاف.

ولن تستطيع ذاكرة ياسمين أن تزيل نقش آخر يوم لها في الكلية، لجنة تحكيم المشروع لم تبخل عليها بالامتنياز، وعماد يرمقها ويستشعر فرحتها، يحتضنها قلبه قبل يديه، تلك الشابة التي لم تتخل عن طفلة روحها وتحفظها برغم كل المرور، أستقبلها بابتسامة وهي قادمة نحوه، يعرف أن لمعان عينيها ما هي إلا دموع

- لما البكاء في يوم كذلك؟

أشارت

- لا أصدق ما أنا فيه، هل يمكن أن تطول الأحلام شهور لأصحو على سقطة من سريري، أو أجدني قد غفوت بجانب عربة العطارة في السوق، ثم أتلفت لأجدك كنت طيقًا سأكبي العمر على اختفائه

يقدر ما تشعر به، لقد أنهت لتوها سباق عنيف مع مكر الحياة

- أنت يقظة, لن تفيقي إلا وتجديني أمامك, تلك هي الحقيقة يا مهندستي  
الرقيقة

ابتسمت واتسعت حدقتا عينيها تقاوم دموعها

- لك عندي مفاجأة بمناسبة نهاية الدراسة

أشارت ياسمين بفضول

- ترى ما هي؟

هل سيتمنى قلب أي فتاة إلا أنه قد هيا البيت وستستعد للزفاف, لتجده من  
حيث بجانبها, لتعيش في كنفه وتخرج من صدرها ما تبقى من شجن,  
انطلق بها إلى منطقة الأزهر ومنه إلى خان الخليلي ليركن السيارة ويسيرا  
فى شوارعه الضيقة الباهرة, رائحة البخور وبريق المصاغ, الأجانب هنا  
وهناك, العباءات الملونة والمشغولات الصدفية والنحاسية, يالا الجمال  
والسحر!! وعند أحد المحلات المغلقة توقف, ثم مد يده لياسمين بمفتاح,  
أشارت

- لم أفهم

عماد وهو يعطيها مفتاحا للمحل

- افتحي المحل

وقفت مذهولة لا تفهم ما يدور ليبي صوته

- اشتريته لك, مهرك يا ياسمين, ولكي اطمئن عليك أنك لن تحتاجي لأحد  
يوماً ما

بُهِتت للحظات وتسمرت مكانها لتشير

- لكن ذلك كثير

سحبها من يديها ليريها الورشة الملحقة به من الخلف

- لن يكثر عليك شئ, أريده أشهر محل مشغولات فى الخان

لم تتمالك ياسمين نفسها من الفرحة

- لا أصدق عيني, لم أكن أحلم إلا بورشة صغيرة جدًا في مكان عادي,  
وليس تلك الورشة الكبيرة في خان الخليلى مرة واحدة, سيتوقف قلبي عن  
العمل من جمال المفاجأة

لكنها وبالرغم من سعادتها لم تكن تتمنى إلا أن تكون المفاجأة بيتهما معًا.

\*\*\*\*\*

بدأت ياسمين في إعداد ورشتها, وعماد يسابق الوقت ليجهز بيت أبيه  
لأستقبال عروس قلبه وحياته, لا يشعر بالعالم من حوله, لا يهتم إلا  
بياسمين وبالיום الذى سيجمعهما, متناسيًا كل المشكلات والمنغصات, لكن  
عذره الوحيد انه اهتم بالجميع كثيرًا وعلى من حوله أن يهتموا به ولو مرة  
واحدة بعمره, وبالرغم من أن عائلته يشعرون به وبتعلقه الشديد بتلك الفتاة  
التي لم يروها إلى الآن إلا أن دنيا كانت أكثر من يفكر فيه, تتمنى له  
السعادة التي تعلم جيدًا أنه لم يحياها مع مريم بطباعها النافرة, لكنها فى  
نفس الوقت تخاف عليه وعلى فتاتيه منها ومن عندها وتكبرها, رن هاتفه  
ليصله صوتها

- كيف حالك يا عماد

- الحمد لله يا حبيبتي, بخير حال

- هل نسيتني, فلم تعد تسأل عني؟

- وهل أستطيع؟ أعرف أنى مقصر في حق الجميع لكن عشمي أنكم  
تقدرون ما أنا فيه

- أعرف وأقدر, لكنى قلقة عليك وعلى بناتك, وما ستفعله مريم بنا

صمت عماد فاستشعرت أنها أثقلت عليه فأكملت

- ألم تنوي أن تعرفني على عروسك؟

ابتهج عماد لحنية دنيا وتفهمها

- غداً الجمعة, نكلفك غداء, وآتيك بها

- أمرك يا حبيبي, وسأطلب سماح لتكون معنا

جاء الموعد الذي استعدت له ياسمين كثيراً وتخوفت منه أكثر, الفتاة في مثل تلك اللقاءات تتجمل, تترصع بذهبها, تضيف لذاتها, أما هي فماذا ستفعل في صمتها, هل سيكون الحاجز الذي يفصلها عنهم أم سيكونوا في أخلاق عماد ويقربها منهم؟ لا تعرف ياسمين مهما قال لها من هو وسط عائلته, أنه البدر الذي ينتظر الجميع نوره لكنه لا يأفل, البحر الذي يفيض بالخير ولا يُغرق, السماء التي تفيض بمطرها دون انقطاع, فما حيلتهم في بدرهم وقد ألقى نوره عليها وبحرهم وقد احتضنتها أمواجه وسماهم وقد صنعت لأرضها واحة!!

تلك الراحة النفسية التي أشعت منها انتقلت إلى أسرته, ارتاح الجميع لرقتها وهدوءها واستشعروا طيببتها لأول وهلة, حتى المعارضين من أبناء دنيا وعلى رأسهم الدكتور محمد الأبن الأكبر, تبدل رأيهم بعد إشادة نساء العائلة اللاتي رأوا وجهها بما تتمتع به من جمال وبراعة وود لم يروه مطلقاً من مريم, وبأن عماد بالفعل عرف كيف يختار من تريح خاطره وتعيد له شباب قلبه الذي هُرم في جحيم مريم.

التف الجميع حول الغداء الذي أعدته دنيا وجنات يتكلمون ويضحكون ويتمنون السعادة لعماد وياسمين من وراء قلق عميق, لكن فجأة وعلى غير توقع رن جرس هاتف عماد, كان المتصل ابنته غادة

بهت عماد والجميع يلحظون تلون وجهه من وقع خبر ألقته غادة على مسامعه فنزل على رأسه كالحائط المهذوم.

\*\*\*\*\*

أغلق الخط وعماد ينظر بذهول وهو يسمع من حوله يكررون جميعاً سؤالا واحداً

- ما الذي حدث يا عماد ؟

الجميع يتقرب , الكلمات تخرج من فمه ثقيلة من شفتين باتت تسكن وجه الوجوم

- عادة تقول أن مريم تلد في المستشفى, ووضعها حرج .... ثم وجه نظره لسماح وهو يكمل

- هل يعرف أحدكم عن ذلك الأمر

بهتت سماح وهزت راسها نافية

- أنا لا أعرف, على العكس لم أحاول مهاقت مريم طوال تلك الفترة, لأنني فعلتها مرة واحدة وكانت ردة فعلها قاسية, وحادثتني بطريقة فظة ومتعالية, واتهمتنا جميعًا بأننا السبب في خراب بيتها,

ضربت دنيا على صدرها وهي تكرر

- نحن من خربنا بيتها!!

أكملت سماح

- نعم, وقالت أن الدليل على ذلك أننا نشاهد ما يحدث ونقف موقف المتفرجين لأن خراب البيت على هوانا, فلم أحدثها بعدها نهائيًا

عاتبها بعماد بلهجة غاضبة

- ولماذا لم تقولي لي؟

- لم أرد للأمور أن تتسع وتتعدد

ارتفع صوت دنيا وهي تعقب

- تعجبت من محاولة صلحها لك, بحساب بسيط هي كانت حامل وقتها في الشهر الرابع تقريبًا, فقد مر على ذلك اليوم حوالي خمسة أشهر

كان عماد ينظر إلى ياسمين التي تجمدت مكانها, تشعر بالخطر القادم والذي لن تستطيع دفعه, تفاعلت في قلبها مشاعر القلق والخوف والغيرة

فظهر الأسى في عينيها, هل ستفقدّه ؟ هي لن تفقد شخصاً بل حياة, لقد اصبح الهواء الذى تستنشقها لتحيا, فهل ستحرمها الحياة منه لتختنق؟.

اتفق الجميع على أن يسبق دنيا والحاج جلال مع سماح وزوجها عماد إلى المشفى, على ان يلحق بهم عماد بعد أن يوصل ياسمين, خرجا معاً ليسود الصمت السيارة, لم تعبر ياسمين بأى إشارة عما يجول فى خاطرها, وعماد تائه في متاهة الأحداث التي تلاحقت على قلبه لتعصره

- ياسمين, ثقي أنه لن يؤثر على اتفاقنا أي حدث مهما كان, كل ما اتفقنا عليه سيتم كما تواعدنا

هزت رأسها برفق, غادرته بجسدها لتصعد وتجلس وحيدة كما اعتادت, تشعر وكأنها طير صغير مسافر بلا سرب اضناه الرحيل, تلاحقه شباك مكر الحياة وما أن يفلت من واحدة إلا وتلتف حوله الأخرى, لن يبقى! لا محالة راحل كما رحل الأحباب, وبالذات لو انجبت له زوجته الولد الذى يحلم به, يجب عليها شد أزر نفسها لتقف امام الريح القادمة التى ستعصف بكل ما تمنته, يجب ألا تشعره بألمها وحزنها بل على العكس يجب أن تساعد, لقد ساندتها التعب لتصل الى موطنه وهى الآن وحيدة مهيضة الجناح لا يقف بجانبها أحد حتى عماد سيهجرها, لكن أصبح من الواجب عليها الآن أن تقف بجانبه وتفعل ما يضمن صالحه حتى لو كان على حساب نفسها وقلبها, وما الحب إلا التضحية عن طيب خاطر لمن نحب, والرغبة فى رؤيته سعيدا مرتاح البال .

وبينما ياسمين تتجرع مرارة كأس الحسرة والانكسار, التقى عماد بعائلته أمام المستشفى الصغير للدكتور زياد فى مدينة نصر كما اخبرتهم عادة, صعدوا ليجدوا مريم تخرج مخدرة من غرفة العمليات ملقاة على السرير , تبكى وتهزى بكلمات غير مفهومة, بجانبها عادة وغيداء يسيران خلف السرير, ثم أطلت عليهم الممرضة بوجه منبسط

- مبروك, رزقكم الله بولد كالضياء

أسرع عماد بلهفة



- أين هو؟

- هو الآن في قسم الأطفال يستحم وسأتيكم به فور تجهيزه

عماد لا يستطيع أن يتمالك نفسه من وقع المفاجأة, لقد جاء الولد الذى تمناه طيلة حياته, الشئ الوحيد الذى لم يتمناه أن تكون مريم أمه, تمنى أن تشاركه ياسمين نطفته ليرث منها الطيبة والحب للجميع, مشاعره يتنازع عليها الفرح والخوف, الفرح بالولد والخوف من أن يكون العثرة في علاقته بياسمين.

بدأت مريم فى استرداد جزء كبير من وعيها فطلبت من عماد ألا يدخل عليها أحد إلا بعد أن تأخذ حماماً وتغيير ثياب العمليات الملوثة بالدماء .. اسندها عماد مع الممرضة للحمام, ثم جلس وسط فتاتيه التى بدت عليهما السعادة لوصول ذلك الضيف الصغير

- لماذا لم تخبرني واحدة منكما بحمل مريم؟

أسرعت غداء بالرد

- مامي كانت غاضبة منك لأنك ولأول مرة تترك البيت, ولم تعود معها عندما جاءتك للصلح, ورفضت كل المحاولات لأخبارك

أخذت عادة آخر كلمات غداء لتكمل

- تعرف مدى عصبية مامي, لم نستطع الضغط عليها وخصوصاً أنها كانت تعاني في حملها الكثير, لم يكن يستقر في معدتها طعام, وصاحبها الأرق والخوف من الموت وهي تلد, فخشنا إن أخبرناك على غير غرادتها أن تحدث مشاكل أكبر

لم يمر الكثير حتى خرجت مريم تستند على الممرضة

- كان يجب أن تخبريني يا مريم, حتى أكون بجانبك

ردت مريم بوهن

- لم أتوقع لهذا الحمل الاكتمال, لن أخفي عليك لقد حاولت التخلص منه  
بشتى الطرق لكنني لم أفجح ... ثم انخرطت في بكاء شديد تحتضنها عادة  
وغيداء

- كيف تفكري في قتل روح بريئة؟

زاد بكاء مريم وقالت بضعف

- لم أكن أريد له أن يأتي ليكون أول ما يشهده طلاق أمه وأبوه, ما ذنبه!!

ربت عماد على كتفها بحنان وهو يردد

- لن يحدث, أهدأي ولن يأتي من الله إلا الخير

ابتسمت مريم بضعف

- أفهم من هذا أنك ستعود معنا إلى البيت؟

لاحقت عماد ابتهاجات عادة وغيداء ببوارد الصلح فابتسم مطمئناً أياهم

- نعم, سنعود إلى البيت جميعاً

دخل الجميع ليجدوا مريم وعماد وقد اتفقا على عودته, لن ينكر أحدهم  
الضيق, لقد أحبوا ياسمين من أول لقاء وتعاطفوا معها, لكن وصول هذا  
الطفل في ذلك الوقت أفسد كل شيء, فلم يسعهم إلا التهنية التي تقبلتها مريم  
ببرود لتضيف إلى الحاجز الذي يفصلها عنهم حاجزاً أقوى وأشد .

دخلت الممرضة تحمل الولد لتضعه بجانب مريم, التقطه عماد من بين  
يديها وأعطاهما من المال ما سُرّت به, نظر عماد إلى الطفل بابتسامة حانية  
ترتسم في مقلتيه منظر أبوه وهو يحمله كما يحمل ابنه الآن, لماذا يسعد  
الرجال بالذكور؟ هل لأنه يحمل اسمه واسم عائلته؟ أم لأنه سيكون حمايه  
لبناته من بعده؟ أم إنها غريزة بداخلهم كونه رجلاً أنجب رجلاً.

عرف عماد في ذلك اليوم سر سعادة أبيه به, صحيح انه انجب عادة  
وغيداء وسُر بهما, لكن ما يشعر به وهو يحمل ولده مختلف, قال وهو  
ينظر إليه بحب

- ضياء .. سأسميه ضياء

ابتسمت مريم وهي تداعب يده الصغيرة

- ولماذا ضياء؟

- حتى يكون النور الذي ينير لي ما تبقى من أيامي

سعدت مريم بهذا التعليق, لقد نجحت فيما أرادت, اعادته للبيت رغما عنه ودون المساس بكرامتها, جاءت بالوريث الذي أسعده ولن يجعل أحداً يشاركها في ماله, هدمت كل خططه في الفرار من قبضتها, لقد ضربت كل العصافير بحجر واحد كما يقولون.

\*\*\*\*\*

جنت مريم ثمار ما زرعه في شهور بحذر وحيطة, لقد خططت بمهارة امرأة مخادعة طماعه, وبينما عماد مبتهج بقطعه الغالية غابت مريم في أفكارها, تتذكر يوم أن ذهبت إلى عيادة الدكتور زياد وتم الاتفاق بينهما

- دكتور زياد, لقد سمعت عنك الكثير وعرفت أنك متخصص في عمليات الإجهاض

هز زياد رأسه بمكر

- هل أنت حامل وتريدي أن تجهضي جنينك؟

امتعض وجه مريم

- لا, أريد أن أوهم من حولي أنني حامل, ثم ألد ذكر

ارتفعت ضحكات زياد وهو يهز رأسه بالرفض

- لا, ليس ذلك من عملي

- سأدفع أي ثمن من أجل هذا

أثارت كلماتها شهيته، تعرف ثمن من هم مثله، الحرام يجز الحرام ولن يتوقف عند نقطة

- عمليات الإجهاض تنتهي سريعاً دون جلبة ومشاكل، لكن ولد من حامل  
لأمرأة ليست حامل، مشكلة كبيرة!! .... ثم صمت قليلاً ليكمل

- اتركيني قليلاً علني أستطيع ترتيب الأمر

وافقت مريم على ما قال مع تنبيهه بأهمية الوقت، لم ينتظر الدكتور زياد  
كثيراً حتى اتصل بها ليخبرها أنه وجد ما تبحث عنه، فتاة في أول الشهر  
الخامس من حملها، طالبة تزوجت بعقد عرفي وهرب بالطبع من أغواها  
حاملاً معه الورقة الوحيدة التي تثبت نسب الطفل

- البنت ظروفها مناسبة، أهلها في البلد وهي في المدينة الجامعية و...

قاطعته مريم

- لا أريد أن أعرف عنها أو عن ظروفها، هل اتفقت معها؟

- نعم، اتفقنا بدلاً من الإجهاض الذي قد يؤدي بحياتها ويسبب لها فضيحة،  
أن تكمل حملها وتحصل على قدر من المال وخصوصاً أن ظروفها المادية  
صعبة

- المهم التأكد من أنها تحمل ذكر، وأنها موافقة تماماً بلا تردد

هز زياد رأسه بالموافقة

- لكنها طلبت مبلغ كبير، هذا غير ما سأحصل عليه أنا

- لا يهم، ستأخذ كل ما ستطلبه بلا أدنى شك، أهم ما في الأمر شروط  
الاتفاق

بهت زياد من حديثها

- أي شروط؟

- أولاً البنت لا تعرف عني ولا أعرف عنها ولا حتى الأسماء, ثانياً أهل زوجي أطباء فيجب أن تكون الولادة ببنج وفتح بطن كمن تلد تماماً, ثالثاً ولادة الفتاة تتم في نفس حجرة ولادتي حتى لا يحدث أي مفاجآت, تأتي من عيادتك مخدرة وتعود إليها مخدرة بحيث لا تعرف مكان المشفى ولا اسمه, رابعاً كما سانسك وأنسى أنني قالتك أنت أيضاً ستنساني

تنهد زياد بعمق مع ابتسامة ماكرة

- اتفقنا, سيتم تنفيذ كل الشروط, المهم أن تبدأ في وهم من حولك بحملك, وتلك التحاليل والأشعات التي تثبت ذلك

لم يكن التمثيل على مريم صعباً وخصوصاً أن عماد خارج البيت ولا يهتم إلا بتلك الفتاة التي استحوذت عليه, وابنتها في سن صغيرة, وبقليل من انتفاخ البطن والتظاهر بالالم والقيء علم الجميع ممن حولها من جيرانها وصديقاتها في النادي بحملها, مرت عليها أيام قلق طويلة تخشى فيها من أى خطأ يهدم ما بنت, لكن أنت الرياح بما تمنت وحقق لها الدكتور زياد شروطها, دخلت غرفة العمليات لتجد فتاة حامل مخدرة, وأجريت العملية كأنها قيصرية, دفعها عندها وطمعها أن تفتح بطنها لا لشيء إلا لتحريك الخدعة, وها هي تجنى ثمار ما زرعت وما عانت, وها هو عماد بجانبها, تعلم أنه لم يكن ليعود إلا هكذا, حقاً عاد رغماً عنه لكن من يهتم, الأهم أنه عاد وبكل أمواله .

\*\*\*\*\*

مرت الأيام الأولى لولادة مريم تحاصر فيها عماد ولا تترك له فرصة للخروج, ساعدها على ذلك تعلقه الشديد بضياء الذى اصبح عماد يعطيه جزءاً كبيراً من اهتمامه, والأيام تمر على ياسمين كمن يموت في اليوم ألف مرة, روحها تهيم حيث تظن أنه موجود لكنها لن تستطيع الاقتراب, لقد عاهدت نفسها ألا تقف ضد سعادته, تحاول دفن كيائها في تصميماتها لتتوه, لكنها ما تلبث أن تفيق وتحن إليه وإلى أيام وجوده, ذلك الحنين الذى يمزق أحشاءها ويطعننها في قلبها فتخرج أناتها دموعاً لا تستطيع التعبير عنها بالكلمات, لقد انعقد لسانها حتى عن الأنين .

وبينما كانت تجلس فى ورشتها تحاول التفاعل مع تلك الحياة التى أخذت منها كل عزيز, إذا به يدخل عليها ويقف أمامها لتلتقى أعينهم ويطول الصمت, تمت فى تلك اللحظة أن تسيل أناتها دموعًا ليمسحها عنها كما مسح حزنها من قبل, لكن لا سبيل إلا الصمود

- حمدًا لله على سلامتك وسلامة ضياء

- سلمك الله, كم اشتاقك!!

كم تتمنى أن تهرب من ذلك اللقاء, أن تعفيه من أى مبررات أو اعتذارات أو كلمات انسحاب, تعلم انه سينسحب لكنها لا تريد أن تسمع كلمة الفراق, لماذا لا يتركها تحيا ما تبقى لها على أمل عودته, ستنتظر كل يوم إلى الطريق وتخاله جاء, ستنتظر الى دبلتها فى يدها اليمنى وتتوهم اليوم الذى ستنتقل فيه إلى اليسرى, فلتمر الأيام بها ولتنتقلها من مرحلة الى أخرى وهى فى انتظاره, أما أن يواجهها بالفراق فهذا ما لن تطيقه, فليذهب إن أراد وليترك لها الأمل, لن تطفأ ذلك السراج الذى أنار حياتها فإن أحرق أحدًا فلن يكون إلا هى, فالاحترق بسراج الأمل سيكون أفضل من الموت فى ظلام اليأس .

أشارت له ياسمين

- مضطرة للخروج, عندي تسليم مصوغات, الورشة مكانك

ثم حاولت الأنصراف, لكنه وقف أمامها

- لماذا تحاولي الهرب, أعرف أني انشغلت عنك, لكن عليك أن تفهمي أنني لن أستطيع العيش بدونك مهما حدث ومهما كانت الموانع

أشارت ياسمين وهى تبتعد

- لقد تغيرت الأحوال

- أي أحوال!! زيادة طفل لن تغير من اتفاقنا, إلا إذا كان الابتعاد قرارًا لصالحك

أرادت ياسمين أن تريحه لأنه من الواضح وعلى غير المتوقع أنه ليس  
بالسعادة التي توقعتها لقدم ابنه فأشارت

- لم أتكلم عن ابتعاد, لكن زوجتك ما زالت متعبة أثر الولادة, لا يصح أن  
تألمها بظهور امرأة أخرى في حياتك, الظروف ضدي

هز عماد راسه بياس

- أنت على حق, لكن آخر ما أتصوره خروجك من حياتي!!

أشارت وهي تستدعي القوة

- لم اقصد ذلك, أنا ايضاً لا أقو على فراقك, لكن دع الأمور تستقر

- إلى متي يا ياسمين سيغزل لنا البعاد حبلاً بلا طرف لأجذبك منه

- مهما طال الوقت, لو انفرط عقد سنواتي فلن أفرط في دبلتك, وستظل في  
يدي حتى الموت

ترقرقت في عينيها دموعاً لم تقو على جهادها, فسحبت من عينيها دمعان,

فأشارت

- أشعر بعدم سعادتك على عكس ما توقعت

تنهد عماد فألقى بحمل ثقيل

- أحيا أسوأ أيام حياتي, لن أنكر سعادتي بضياء لكن هناك ما لا يريح  
صدري ولا أعلم ما هو, كما أن طباع مريم أصبحت بعد ضياء أسوأ مما  
كانت عليه, أحاول التظاهر طوال الوقت حد الاختناق

ثم نظر إلى عينيها وأكمل

- لا راحة لقلبي إلا معك, ولن أحدثك عما يفعل بي الاشتياق

ومن خلف دموع لم تستطع السيطرة عليها أشارت

- الأيام تمر بدونك بلا روح

هز عماد رأسه وهو يقول

- إذا دعي الخداع والتظاهر لما سوانا, ولنبق دوماً مرآة الروح للروح

أشارت ياسمين بالموافقة

- سأحزن بشدة إن حدث منك هذا مرة أخرى, كوني دوماً روحي التي  
ترتد لجسدي عند اللقاء, ولا تنسحبي مهما حدث لتتركيني على شفا الموت

هزت رأسها بخجل, يرى ابتسامتها الصافية حتى وإن حجبته قطعة قماش  
سوداء, فأضاءت ابتسامته وجهه

- فلنتناول غداءنا معاً

غابا الاثنان هناك فى مكانهما حيث يلتقيان لتمسح عنه تلك المقابلة احزانه,  
وتمزقه بين الفرح بضياء والشقاء مع امرأة لا يعينها إلا بريق المال,  
وتزيح عنها خوف ابتعاده, حتى لو لم يتزوجا يكفيها ذلك الجزء الذى  
امتلكته منه, لا تريد أكثر من تلك الساعات التى ترى فيها وجهه وتسمع  
فيها صوته.

فلتمضي الأيام والشهور لكنها لم تستطع تفريقهما, كما لم تقو على تغيير  
مريم التى أصبحت أسوأ مما كانت عليه, تفعل ما يحلو لها تحت مظلة  
ضياء, تعلم أن عماد يحترق على فتاته وهى تستمتع بذلك الحريق الذى  
تشتم رائحة دخانه كالنسيم العليل, وما الذى يضرها من ناره طالما بعيداً  
عنها وعن فتاتها, أما ضياء فلم يحظ منها بمشاعر ود, فمثلها كالأفاعى لا  
يحب إلا من هو منه, لكنها تحترف تمثيل تعلقها الشديد به ولما لا وهو  
المفتاح السحري الذى فتح لها عماد وخزائنه, فلينعم ضياء بحب عماد  
وفتاتها, ولتنعم هى بامتلاك عماد وأمواله مصحوبة بحسرة قلبه .

\*\*\*\*\*

أحمد يرقب عماد بعين الشفقة, يعلم أن ياسمين على بعد خطوات منه ولا  
يستطيع لم شمله بها, وبالرغم من تحقيق حلم الولد إلا أنه هَرَمَ في عام  
واحد كمن مرّ عليه عشر, لم يعد هو بوجوده الطاغى كالبحر الهائج,



انحسر عن شاطئ الحياة كجزر بلا مد, ألقى عليه عبأ الوكالة لكنه الكتف الذي تربى من خيريه ويصون كل جنية بعينه, هو أيضاً رُزق بصالح قرة عين له ولزوجته الطيبة, بنت شيخ الجامع الذي يداوم فيه على الصلاة, لن ينسى رفق الله به عندما ضحى بياسمين لعماد عن طيب خاطر, من قال أن الصدقة مال وحسب, لقد عوضه بما لم يحلم, صلى يومها ما شاء الله له وسجد سجدة طويلة أجهش فيها بالبكاء, سلم ليجد عن يمينه الشيخ وقد رق قلبه لحاله يسأله عن أمره, أخبره يومها أحمد بما كان, ابتسم له في صفاء وهو يقول

- عندي خمس فتيات زوجتهن جميعاً عدا واحدة, ما رأيك في أن تناسب شيخك العجوز

لم يصدق أحمد أذنيه, ما هذا الفضل!! يسمع عن بنات الشيخ ممن تمنوا نسبه ولم يستطيعوا, يُقال فيهن ما يُقال في الحور العين, فهل يرقى هو لهذا الكرم

- أنا .... قالها أحمد بذهول

- نعم أنت, أنت رجل جواد, جاد عن طيب خاطر بمن تمنّاها لمن رباه, حسن الخلق يزن الرجل بالذهب, وأنا لا أملك إلا ابنتي

لم يترك عماد والشيخ جانبه حتى استقر وعروسه في بيته, يحيا مع ملاك في صورة بشر, ملكت قلبه وعقله وحب أمه بخلقها, لقد تُرك ليُمنح

رفع عماد رأسه الملقى على المكتب لتواجه أعينهم

- لماذا تنظر إلي هكذا يا أحمد؟

- سامحني يا حاج, أشعر أنك ومنذ فترة غير مرتاح البال والقلب؟

هز عماد رأسه بهدوء لكنه ما زال في شروده, ماذا سيقول له؟ كيف مر عامًا لم يستطع فيه أن يأخذ خطوة واحدة في زواجه من ياسمين ومحافظته على عهده معها؟ لكن كيف ومريم لا تترك أي فرصة إلا وتذكره بأنه لها ولأولادها وأن أي تفكير في الاقتران بأخرى ثمنه أولاده بما فيهم ضياء,

هل يُسر له أنه أصبح أسير تلك الاسوار التى تتقنن فى ضربها حوله, ومن خلف تلك الأسوار لا نجاه لنفسه إلا تلك الساعات التى تشاركه فيها ياسمين الحياة, فلا يشعر أنه التقط انفاسه إلا عندما يراها فيتسع الضيق ليصير براحاً مخضراً بزهور الياسمين البيضاء ورائحتها العطرة.

أفاق عماد من شروده ليجد أحمد ما زال أمامه يتبعه بنظراته الحانية, اتسعت شفتي عماد بابتسامة رضا

- هل تعرف يا أحمد لو خيروني في أخ صغير سأختارك دون سواك

لمعت عيني أحمد وبادله ابتسامته بضحكة خجولة طيبة

- رفع الله قدرك يا حاج, إن كنت أخاك فطمئني عليك

وبتنهيدة حارقة ألهبت فؤاده قال

- عندما اطمئن سأطمئنك, في قلبي غيامة سوداء لا أعرف سرها, شئ ما بعيداً يخطف روحي ويقيد سعادتي حتى بما كنت أتمنى

- أنت رجل طيب وأنا على ثقة من أن تلك الغيامة ستمطر قريباً حتى لو كان بما لم تشتهي سيزول وينقشع

ابتهج قلب عماد واتسع لكلام أحمد, في ذلك الشاب سر تشي به ملامحه النقية, هل هو ماء كثرة الضوء الذي يتركه أحمد ولا يجففه ليأخذ سيئاته ويرحل كما يقول دوماً, فلم يمسخ ذنوبه فقط بل منحه وضاء وبركة يستشعرها عماد منذ زمن؟ أم بره الشديد بأمه ورضاها عنه, أم تراها أمانته وعزة نفسه؟ لكنه على يقين من تحقق بشارته

- قل لي كيف حال صالح؟

اتسعت عيني أحمد وزاد وضاءه عند ذكر اسم ولده

- بخير وسأربيه ليكون بجانب ضياء كما كان أبوه بجانبك

ضياء!! لماذا لا يشعر بتلك الخطفة التي استشعرها في ملامح أحمد عند ذكره, لو يعلم أحمد أن مال الدنيا لا يقف على قدم المساواة أمام تلك

المشاعر, وأنه على الاستعداد للتنازل عنه على أن يحظى بمثلها, حقًا لا  
يظلم ربك أحدًا.

\*\*\*\*\*

وكما تعني هي له الحياة, هو يعني لها الحياة والموت متعاقبان, روحها  
مفارقة معه أينما حل, معه هي على قيد الحياة, بدونه هي الميت الحي

- كل عام وأنت بألف خير يا ياسمينتي .... قالها وهو يضع أمامها فانوس  
رمضان الملون, مر عام سريع

أشارت ياسمين

- وأنت بكل الخير

أخفض عينه ثم رفعها

- وأنت بكل الخير فقط !!

أشارت ياسمين بخجل

- يا حبيبي

- أنا أريدها لا لعدم الثقة, لكن للاطمئنان

- كن على ثقة منها مهما حدث

- ألن يأتي يوم وتتمنين فيه التخلص من تلك الوحدة التي لا أعرف متى  
ستنتهي

هزت ياسمين رأسها بالنفي

- الوحدة هي ألف ألف أنت لست منهم, ثم أن طيفك لا يتركني وحيدة أبدًا  
- لكن ...

رفعت ياسمين يدها لتسكت ما سيقول

- ألم تقل لي يوماً أن الالتقاء خلق للأرواح لا للأجساد, وأنا روحي معك  
ولن تفارقك

ساد صمت متكلم بينهما, هو يخجل من وعد مؤجل, وهي تخشى فراق  
تنتشر رائحته حولهما, قطعت الصمت ببضع أشارات

- أريد أن أوجر شقة هنا حتى أتجنب مشقة الذهاب والأياب

وجم عماد من الطلب الذي نزل كصاعقة, فhez رأسه بعنف وقال بشدة

- لا, لن تخرجي من بيتك إلا لتدخلي بيتي, وبدون نقاش

ابتسمت وهزت رأسها بالموافقة, هل ستكذب!! بالطبع سعدت بذلك الأمل  
الذي يمنحها دوماً آياه, فحتى إن لم يتحقق يكفيها أنها تستنشق هواءاً قد  
يكون مر على رئتيه.

\*\*\*\*\*

ارتفعت أصوات المساجد بالترابيح, عم الوئام وساد السلام اللذان يلتفان  
حول ذراعي شهر رمضان, ستجتمع العائلة أول يوم رمضان كما اعتادت,  
وستشاطر الوحدة ياسمين في مائدتها الصغيرة, كم كانت تتمنى لو أنها  
هناك على مائدته, تنعم بالأمان في رحله, قافلتها التي تخشى ألا تدلو  
بدلوها لتخرجها من البئر, فهلا مرور.

وبينما ياسمين تتمنى قربه وعائلته, مريم تضغط عليه بكل الوسائل الممكنة  
لفض ذلك الاجتماع العائلي الذي لا يثير في نفسها إلا مشاعر الكره والغیظ

- لا داعي لذلك التجمع ذلك العام, أخاف على ضياء

تنهد عماد بيأس

- تخافين على ضياء من أهله!!

ارتفع صوتها

- أنا أخاف عليه من الجميع, وليس من أهلك فقط

امتعض عماد, يعرف ما ترمي إليه لكنه المحال بعينه, ليس بضياء بل لو أنته بألف ضياء

- لا داعي للخوف, واجعلي الاجتماع العائلي بأسر أخواتي وزوجة أبي خط أحمر لا تقتربي منه مهما كنت تحملين في يدك من أسلحة حتى لا تضرب حوائط بيتنا عاصفة لا يتمناها أحد

امتعضت مريم لكنها التحفت بالصمت, لن تدخل في نقاش أطول, يكفيها إلى الآن ما حققته, ولتجعل فرقته عن أهله للقادم الذى لن يكون بعيداً, فكلما كبر ضياء عامّاً اقتربت هي من هدفها خطوات.

كان أكثر ما يميز أجتتماع هذا العام ضياء الذى اقترب عمره من العام, وخطواته الأولى التى كانت محط ضحك وسعادة الجميع, كم هو طفل ودود جميل يحب عماد ويلتصق به, يغزوه بضحكات تخترق صدره لكنه ليس الاختراق الذى تمناه, لماذا لا يعرف؟.

وبينما الجميع في انشغال, لاحظت مريم خيطاً يمتد بين عادة وعمر ابن دنيا, ودون أن يشعرا وضعتهما تحت عينيها وعيني غيداء ابنتها البارة والشبيه الوحيد لها ممن حولها فى الحياة, فالتقطت أذننا نبته حواراً عاطفياً بينهما, أسرع غيداء لتلقي بما سمعت على أذن مريم التى لم تهدأ حتى أشعلت ناراً متقدة ثم ألقت بها فى وجه الجميع, استدعت صرخاتها عماد

- ماذا حدث؟

- ماذا حدث؟ ما كنت اخشاه دوماً, الاجتماعات العائلية وخطها الأحمر, ابن أختك عمر يلعب برأس ابنتك عادة

اشتعل وجه عادة وعمر اتقاداً, فمشاعرهما ما زالت في شرنقتها لم تعلن الخروج, وإذا بمريم تمسك الخيط الحريري الذى ينسجاء بينهما لتقطعه, نظر عماد فى عيونهم ليرى لمعة يعرفها جيداً, ودموعاً غالية تحبسها الجفون, فقال بهدوء وعلى وجهه بزوغ ابتسامة

- عمر .. وغادة !!

هرولت دنيا من المطبخ عند سماع الضجيج واسم عمر يتردد

- ماذا فعل عمر يا عماد؟

طمأن عماد أخته وهو يربت على كتفها

- يبدو يا دنيا أن ابنك كبير و..... ثم صمت وهو يرمق عمر وغادة

قاطعت دنيا بخوف فقدان أخوها وحبيبها

- وماذا يا عماد؟

- ابنك معجب بابنتي, كبرنا يا دنيا ويبدو أننا نقترّب من أن نكون أجدادًا  
لحفيد مشترك

التقط عمر أنفاسه من موقف خاله الكريم

- لا يا خالي أنا لست معجب بغادة, أنا أحبها

نظر عماد إلى غادة ليجدها فى قمة خجل الفتاة التى تحب ولا تستطيع  
الافصاح, رأى فيها صورة ياسمين برقتها وطيببتها وخجلها ووداعتها فأراد  
أن يداعبها بكلمات تثير خجلها أكثر, لكن مريم برعونتها وتكبرها تدخلت  
لتشوه الجمال وبدلاً من أن تكون الصديقة والأم معاً ارتفع صياحها أكثر

- تحب من؟ هل تفهم وتعي ما تقول؟ ألا تشعر بالمسافة التى تفصلكما؟  
خطة من التى تنفذها؟

أسرع عماد قبل أن تتخترق مريم حائط دنيا بطلقاتها المدمرة, وحتى لا  
تسرق من غادة ما سبق أن اغتالته منه

- ما هذا الكلام الفارغ؟ وأي مسافة تلك؟ عمر مهندس وابن عمتها وهو  
أحق بها من الغريب..... ثم وجه كلامه لغادة التى كانت قد اقتربت من  
السقوط مغشياً عليها

- لو موافقة فأنا موافق

ردت كلماته فيها الروح, ابتسمت ونظرت إلى الارض خجلاً, فما كان من  
دنيا إلا أن اطلقت زغروطة فرح عبرت عما يجول في نفسها, تحب عماد  
كما لم تحب أحداً, حتى أبناءها!! كثيراً ما احتارت في أمر قلبها لكنها  
سرعان ما حسمته, رآته قبل أن تراه أي عين حتى عين أمه, ربه قبل أن  
تربي أبناءها, لقد انجبتة من رحم قلبها, كما عاش هو لها الحائط الذي تعلم  
أنه خلفها لتستند عليه إذا ما مالت بها الحياة, فارتمت في حضنه وهي  
تبكي بكاء طفل

- لا حرمني الله منك يا غالي

ربت عماد على ظهرها وهو يضمها إلى صدره

- عمر ابني, ولم أكن أتمنى أفضل منه لغادة

ارتدت لعمر روحه التي كانت قد أوشكت على الخروج

- لا حرمني الله منك يا خالي, وثق أنني سأبذل ما فوق طاقتي لأسعادها

شد الحاج جلال على كتف عماد وقد تلاأت في عينيه الدموع

- رجل منذ نعومة أظفرك يا عماد

\*\*\*\*\*

انتهى اللقاء وسط مباركات الجميع وسعادتهم وصرخات مريم التي لم يهتم  
بها عماد, ظلت طوال الطريق تسب وتلعن في غادة, تتهمها بأنها لا تعرف  
ما تفعله بنفسها من ارتباطها بذلك الشاب الذي لا يريد لها لشخصها بل  
لأموال أبيها, وتذكرها بمن سيكون جد وجدة ابنائها بدلاً من نسب  
الشخصيات المرموقة

لم يستطع عماد السيطرة على نفسه أكثر فانفجر كالبركان

- تظنين دوماً أن كل الناس مثلك بلا قلب أو مشاعر, وحوش لا يهتمون  
إلا بالفرائس, المال لا يصنع سعادة بل السعادة هي من تصنع عبير الحياة,  
لكنك لن تفهمين من تلك الجملة إلا كلمة المال, أما السعادة وعبير الحياة

فهي ليست في قاموسك, ثم ما سر هذا التعالي على اختي وزوجها , من سيكون جد وجدة ابناء غادة؟ وأنا من كان جد وجدة ابنائي منك, لو حسبها أبي بنفس طريقتك ما كنت بجانبني الآن

..... ثم وجه نظره لغادة التي يعلم أن كلام أمها قد يسبب لها توترًا وقلقًا

- لا تقلقي ولا تجعلي أيًا من كان يتلاعب بعقلك ووجدانك, عمر شاب محترم وأنا أثق فيه كنتفتي فيك, وحتى إن لزم الأمر لمساعدتي فهذا ليس عيبًا, أموال جدك رحمه الله ساعدتنا من قبل, نحن لا نقابل كل يوم من تتألف أرواحنا معهم, تلك اللقطة الغالية لا تمنحها الحياة إلا نادرًا' تمسكي بها حد الموت, وليس الأصل بالمال لكن الأصل بحسن الخلق وطيب القلب

هدأت روح غادة بنسمات كلمات أبيها, لكن لم تجعل النقاشات على ما كان وما سيكون للنوم مكان في العيون, حتى سمع الجميع آناات ضياء وبكاؤه, أسرعوا إلى غرفته ليجدوه هامدًا في فراشه لا يستطيع الحراك من شدة الالام, ينظر إلى عماد بوهن ويضع يده على بطنه من الالام, ووجهه وجسده كأنهما طليا باللون الأصفر, رفعه عماد من فراشه وضمه وهو يهرول

- ما بك يا حبيبي

لتسرع مريم

- ما به, أراهن أن أحدًا من أهلك وضع له السم في الطعام حتى يتخلصوا منه ويرثوك

نظر إليها عماد نظرة تحمل كل معاني الكره والشفقة معًا لإنسان لا يرى في الحياة إلا المال فلم يعلق, اتصل بمحمود ليلحقوا به إلى المشفى, انزعجت سماح وتلقفت الهاتف

- خيرًا يا عماد, ما الذي حدث لضياء؟

- لا أستطيع الكلام يا سماح, الحقوا بي على وجه السرعة



عماد ينطلق بسيارته وهو لا يرى حتى الطريق, لم يصل بقدرته على القيادة ولا الرؤية لكن عناية الله وحده هي من أوصلته, يبكي كالأطفال وهو يهرول أمام المشفى حاملاً جسد ضياء الهزيل بين يديه وهو ينتفض كفرخ حمام يوم خروجه من بيضته, رعشته تسري في جسد عماد وقلبه, لا يقو على ابتلاع ريقه الذي جف وكأنه قطعة حطب تتقاذفها رمال الصحراء وقت الظهيرة, ليجد الدكتور محمود قد وصل لتوه, تبعتهم مريم مهرولة, تخشى ضياع صفقتها التي دفعت فيها ما يقرب من نصف أموالها التي ادخرتها خلسة من عماد, التوتر يعصف بالجميع, ماذا حدث لضيء لا أحد يعرف؟ الأمر مبهم, لا يعقل عماد أن يكون أحداً من أهله قد آذاه, هذا التفكير لا يأتي إلا من شيطانة تريد أن تقذف به إلي الجحيم, لكن ما يحدث لا مبرر له وكل ما عليه الانتظار ليحظى بالجواب .

\*\*\*\*\*

عماد يهرول في طرقات المشفى كالمجنون, يتبعه د محسن طبيب الأطفال ود محمود زوج سماح, الوقت يصارع روح ضياء وعماد مكتوف الأيدي, لا يستطيع الأطباء التدخل قبل خروج نتيجة التحاليل, لتأتي الأخيرة معلنه أن الولد دمه يتكسر بفعل مرض انيميا الفول, ومن المؤكد أنه أكل الكثير من ذات الفلقتين, عندها تذكر عماد فقال للدكتور محسن وهو يبكي

- أنا من كنت أطعمه بعد الإفطار اللوز والسوداني, أنا الذي دفعت بروحه إلى الوداع, أرجوك يا دكتور تصرف بأي ثمن

هز د محسن رأسه بأسى

- المشكلة أن دمه من فصيلة "O-" وتلك الفصيلة نادرة جداً, لا تقبل التبرع إلا بمثلها, بنك المستشفى به كيس واحد, خاطبنا جميع بنوك الدم ولا رد إلى الآن, وإذا وصلت نسبة الهيموجلوبين إلى درجة معينة سيدخل الطفل في غيبوبة لا نعلم متى يعود منها

- وما العمل؟ نقف عاجزين بينما روحه تصعد أمامنا؟

- الأمل في رد من أي بنك, والكيس الموجود بدأنا فنقله إليه بالفعل

أسرع د محمود

- يجب أن نكسب الوقت, الحل الوحيد تحليل دم سريع لجميع أهله وسنجد بينهم بأذن الله من هو مثله

شمر عماد قميصه بلهفة

- وأنا أولكم, هو ابني ويجب أن يمت لي بصلة

وبينما خضع الجميع للتحاليل حتى د محسن الذى اعتصر قلبه على الأب أكثر من الطفل, كانت مريم تقف تحاول تمثيل دور الأم التي تفقد ولدها, هي حزينة بالفعل لكن ليس على ضياء كأنسان, صفقتها تتسرب من بين يديها كحبات الرمل, ولن تستطيع معاودتها, لم تكن أفكارها تنحصر إلا في ماذا لو مات ضياء؟ ستفقد زراعة أكثر من عام ونصف, سيعود عماد للخرساء وقد تلد له الولد, أوسيشاركها كلاً من كان في ثروته, الضباب ينتشر حول أفكارها فيعمي عينيها عما يحدث أو يُقال, الوجوم يقبع على رأسها كالغريبان السود حول الخرابات, خرج د محمود من غرفة التحاليل يحمل أوراقها بين يديه ليعلن عدم توافق أى عينة مع دم ضياء, سقط عماد على أول كرسي قابلته عينيهِ, يكاد أن يغشى عليه من الألم والخوف والحسرة, كيف لكل أمواله ألا تستطيع دفع الموت عنه؟ جر قدميه جرّاً حيث يرقد الصغير فى العناية المركزة, لم يستطع أحد منعه من شدة ما يرويه من أحزانه التى تجمعت فى عينيهِ دموعاً تكاد تتحول إلى دم ينزف من قلبه, يشتم أنفاسه المتباطئة ويتمنى ألا تكون الأخيرة, العجز الذى يقيد به بأغلاله جعله يتساءل, إن لم تكن النقود تشتري حياة أو تنقذ روحاً فما بال البشر عليها يتهافتون!! فليأخذوا كل ما لديه وليعطوه بدلاً منها أكياس الدم التى ستنقذ حياة ضياء .

\*\*\*\*\*

انتشر الخبر بين جنبات الأزهر وأهله, تلقاه أحمد من د محمد ابن دنيا بينما كانت الوكالة على وشك إغلاق ابوابها ليصرخ أحمد في جميع

العاملين عن من فصيلة دمه " O- " لكن لا جدوى, وبينما أحمد ومحمد يستعدان للذهاب إلى المشفى إلا ووجدا ياسمين أمامهما, أشارت لمحمد

- فصيلتي كضياء

كانوا يسابقون الوقت لكنه كان سابقهم, دخلوا ليروا ذلك الشامخ الذي لم يترك أحد إلا وسانده يهوي تحت أقدام الصغير وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة, وهو ينظر لعماد بعيون وداع تحمل في طياتها حب عميق, حاله جعل الجفون تمطر دمعًا والقلوب تعتصر ألمًا, يالا ذلك الفراق الذي لا يعرف احداً له موعداً أو سبباً, يأتي فجأة ليذهب بالأحباب ويترك فراغاً لا يملؤه بعدهم أي من كان.

وبينما محمد وأحمد يلهثان وياسمين تهرول خلفهما, صرخ د محمد

- ياسمين فصيلتها كضياء

هز د محسن رأسه بأسف وهو يرفع الملاءة البيضاء ليغطي بها الملاك الصغير, انهار عماد انهياراً لم يتخيل أحد ممن حوله أن يروه عليه يوماً, الرجل الذي حمل على عاتقه مسئولية الجميع وبقمة الرجولة والحب, الود الذي يثبت العائلة بجذورها ويربطها بأصولها, فهل سينهار لينهار معه كل شئ؟ لكنه وبالرغم مما هو فيه, اقترب من ياسمين بغير كلام, تشعر بقلبه الممزق, تمنى لو أنها افتدت ابنه بحياتها كما فداها من قبل بمعروفه, التفت إلى د محمد وهو يمد له يده بمفاتيح سيارته

- أعد ياسمين إلى البيت ثم ارجع

خرج محمد بصحبة ياسمين, بينما جلس عماد على إحدى كراسي المشفى تلتهمه دوامة الفراق مصحوبة بأمواج الحزن, تاه في ذكرياته فلم يشعر إلا وببد د محمود تربت على كتفه

- اهدأ يا عماد, أريدك في أمر ضروري

وبدون أن يرفع عماد وجهه الذي احتضنه كفيه

- لا أريد سماع أي كلام, كل كلمات المواساة لن تطفئ جمرى المشتعل

هزه د محمود هزة إفاقة

- أنا لا أريد مواساتك, الأمر يعلو فوق الضروري

- هل ترى أن ذلك الوقت المناسب, أرى أن أي أمر يمكن تأجيله

خفض د محمود رأسه حيث أذنه وهزه بضيق

- لا, إلا هذا

وتحت إلحاح د محمود الذي لم يستطع عماد الفرار منه دخلا غرفة د محسن حيث كان يجلس على مكتبه منكساً رأسه, فرفعها فور دخولهما ليقول

- أريد أن تتحكم في أعصابك يا باشمهندس

الانهيار يلتهم كيانه وهو لا يعي ما الذي يريده منه محمود ود محسن

- بلا مقدمات يا محمود, عقلي وقلبي معطلان, ألا يكفي ما أنا فيه؟

- أنت في اللاشئ يا عماد

عماد يعرف قدر محمود ورزاقته, ليس بالرجل المهزار أو الخفيف العقل, انتبه لكلماته التي توزن بالكثير

- ابني لم يدفن بعد, لم يلمس جسده الأرض وأنت تقول لي اللاشئ!!

تدخل د محسن في الحوار

- هذا ما نقصده, وما يجب أن تعرفه تلك اللحظة وليس بعدها, قبل أن يُدفن الولد ويخرج الأمر من بين أيادينا

عقدت الدهشة وجه عماد وعلا صوته

- هل حدث تقصير بالمشفى؟

أسرع محمود

- تابعت بنفسك اهتمام د محسن, لكن وبكل الأسف يا عماد, ضياء من المستحيل أن يكون ابنك

غزا الدهول وجه عماد واحتل قسماته فاتسعت عينيه عن آخرها وشحب وجهه وانفرجت شفتيه, أفاق بعد لحظات يهز رأسه ليفتح قفل الدهشة فمه

- هل تعي معنى ما تقول؟ هل هناك دليل؟

نكس د محسن ود محمود رأسيهما أسفًا لينطق د محسن

- أنا من أكتشفت الأمر, ولست بالرجل الذي ينطق بما لم يتأكد منه!! الولد فصيلة دمه كما عرفت (O-) وأنت فصيلة دمك (AB) وزوجتك (A), فمن المستحيل أن يكون ضياء ابنك

رحلت كلمات د محسن في دقائق بالدهشة والحزن والعذاب وأتت برياح الغضب, التفت لمحمود بفزع

- احتفظت بأوراق التحاليل يا محمود؟

- نعم, بعد اكتشاف د محسن للحقيقة تمسكت بها كأنها قطعة من لحمي, أنت لست أخو زوجتي فحسب, أنت رمز قلبي بأن الحياة لا تضمن بالرجل الأصيل, لكني لن أخفي عليك ترددنا في وقت إخبارك, بعد الدفن أم قبله!! لكن تراءى لنا أن قبل الدفن سيجعل فرصتك للضغط أكبر

محمود ومحسن يتكلما بالثقة التي لم تدع معها ذرة شك, يتوقع من مريم, الطمع, الحقد, الانانية, الكراهية, لكنه لم يكن يتوقع منها أبدًا الخيانة, فالبرغم من طباعها السيئة إلا أن أصلها طيب, أبواها كانا من أفضل وأطهر الناس, أبوها رحمه الله كان يعمل بالضرائب, رفضه للرشوة والمال الحرام جعل حاله ضيق العيش لكنه رحب الرضا, فأحبه أبوه واحترمه وصارت بينهما تلك الصداقة القوية التي كانت السبب في تلك الزيجة, حتى أمها كانت طيبة القلب وقنوعة ولا تترك فرضًا, فمن أين جاءت ابنتهما بكل ذلك التلوث الخلقي ليتدنى ويصل إلى الخيانة؟, لم يكن

لعماد فيما سبق شياطين تتلاعب برأسه, وها هي مريم تجعلها تتراقص أمام عينيه بأفكار لم يتخيل يوماً أن تطرق ذهنه.

لاحظت مريم فور خروج عماد ومحمود من الحجرة التي طالت جلستهما بها أنه خرج من حالة الانهيار الحاد التي أصابته فور إعلان وفاة ضياء , أمر أحمد بالمغادرة وعمل اتصالاته لفتح مدفن العائلة ليضع ضياء بجانب والده, ثم وبمنتهى الهدوء دعاهم جميعاً إلى الغرفة المحجوزة لضياء ولم يطأها جسده, حتى غادة وغيداء كان لهما نصيباً من الدعوة مما أذهل محمود

- لا داعي لغادة وغيداء

وبنظرة دعتة للصمت أفسح عماد الباب للجميع, وبعد دخول آخرهم أغلقه ووقف أمامه ليمنع خروج أحد, تساءلت دنيا وسماح نفس السؤال في ذات الوقت

- ما الذي يحدث؟

وأمام الصمت الذي طال التفتت سماح لزوجها وكررت

- ما الذي يحدث يا محمود؟

أشاح محمود بوجهه ولم يعقب, بينما وجه عماد نظرات مفترسة لمريم وسألها السؤال الذي لم تتوقعه يوم أن كتبت مع الشيطان شهادة ميلاد ضياء منسوباً إليه

- أمام الجميع, من أبو ضياء؟

وقع السؤال على رأس الجميع كالحائط المهذوم, تبادلوا أفراد العائلة نظرات الدهشة ثم اتجهت أنظارهم إلى مريم التي رفعت كفيها تحتضن كتفيها, شعرت بأنها لو ارتدت ملابس الدنيا بأكملها فستشف عن لحمها وستبدو عارية, لقد خسرت الإنسان الوحيد الذي كان ليحميها إن تجرأت عليها العيون أو لوكتها الألسنة, وها هي وحيدة ولا تستطيع ستر نفسها,

اتجهت عيون غادة وغيداء إليها بنظرة لم تتحملها على كبريائها فخرت  
ساقطة

- كيف عرفت؟

- من فصائل الدم, هل توقعتي أن الله سيتركك لتكملي خيانتك؟

ثم دار حول نفسه وهو يضرب كفيه ببعضهما ليكمل

- لم أؤذك يوماً, لم أقصر في حق من حقوقك برغم مساوئك, تجرعت  
المرار لأحافظ على عهدي مع أبيك بصونك, فلماذا؟

انتبهت مريم إلى ما تحولت إليه, حاولت الارتفاع فإذا بها تهوي

- هل تظنني خنتك يا عماد؟ لا لم يحدث, نحن ما زلنا في المشفى ومستعدة  
لأي فحص, وأصغر طبيب سيعرف أنني لم أحمل أصلاً

اتسعت العيون وزادت الدهشة, قذفها عماد بنظرة قاسية

- كيف لم تحملي, وضياء من أين جاء؟

- أخطأت, طمعت, لكني لم أخن, تلك هي الحقيقة, ضياء طفل اشتريته من  
فتاة حملت به من زواج عرفي وأرادت التخلص منه فعقدت معها صفقة,  
هي من كانت تلد في ذات الغرفة

التعبيرات اختلفت على الوجوه, ما بين متأذي, ومتعجب, ومشمئز, وناقم,  
كيف لها وهي في تلك الحال والمكانة أن ترتكب مثل تلك الفعل, أراد  
عماد أن يغلق صفحته معها فسألها

- ولماذا فعلت ذلك؟

عادت مريم كالثعبان الذي وإن خلع جلده أبدله بأوسع منه

- فعلتها من أجل خرسائك, هل كنت تتوقع أن أقف موقف المتفرج وأنت  
تخطط للزواج منها؟

- وما ذنب الطفل المسكين؟ لقد تعلقت به كابني, عشت معه أجمل حلم

ثم صمت قليلاً ليكمل

- هل تعلمين؟ لو فعلتها من أجلي أو من أجل حفاظك على البيت والبناات  
لسامحتك, لكنها من أجل الميراث فقط, المال الذي أعمى عينيك وسحبك  
في بركته لتغرقنا جميعاً في وحلها

ثم نظر إليها وبقمة الغضب صرخ في وجهها

- أليس كذلك؟

ارتعشت مريم من عزم صوته وخروجه عن شعوره لأول مرة في حياته,  
انزوت في صدر غيداء تحسباً أن يتهجم عليها ويضربها أمام أعين من  
كانت تتكبر عليهم, لكنه تراجع وهو ينظر إليها باشمئزاز

- أبلغ الشرطة يا محمود, ضياء رحمه الله لم يدفن بعد, وبشهادة ميلاده  
والتحاليل ساقاضيه

تسمر د محمود في مكانه, استأذن أبناء دنيا ومنصور للخروج ليفسحوا  
المجال للكبار, الأمر شائك!! أمسكت دنيا بكتف عماد

- لا تفعلها من أجلك وأجل بناتك, سيصدق واحد أنها لم تخن وسيحلو  
الكلام لمائة, وستضيع سمعة غادة وغيداء

تدخل الحاج جلال

- دنيا تقول الصواب, ستنهش لحومنا الناس, لم تعد العائلة أنا وأنت ودنيا  
وسماح ومحمود وجنات, هناك جيل جديد يجب حمايته, لهذا يجب ألا  
يخرج هذا السر من أركان تلك الحجرة

تدخلت غادة وهي تبكي

- أرجوك يا دادي

ثم نظرت الى أمها وأجهشت بالبكاء



مريم لا تقوى على الكلام, لقد اجتمعت أخطاؤها وتحذبت في خطأ واحد  
سيحرقها وستدفع ثمنه غالياً من عزتها وكرامتها التي عاشت تتبختر بهما  
على من يدافعون عنها الآن ويحاولون حمايتها من غضب عماد وانتقامه,  
الذي لم تقد معه التوسلات.

\*\*\*\*\*

وبينما مريم تسقط في عين الجميع كانت ياسمين ترتفع في قلب د محمد  
ابن دنيا, تضحيتها ولهفتها على الصغير, وداعتها ورقتها كحمامة بيضاء,  
وبرغم الأشارات لا يريد لحديثه معها أن ينتهي, حتى صمتها الهادئ له  
نبرة عذبة, لازمها حتى باب بيتها كما أمره عماد, الهواء يشق وجهه  
والحب يتلاعب بقلبه, من دقائق كانت بجانبه تنشر عطرها, سيارة خاله  
تسابق الريح أم قلبه هو من ينتفض ويهرول به, أحساس رائع يمتلكه لكنه  
عاد ليحدث نفسه

- ما هذا الذي يجول بخاطرك!! خطيبة خالك الحبيب!! الرجل الذي يسند  
كتفه العائلة بأكملها, عد إلى رشدك يا محمد ولا تترك لهواك وقلبك العنان  
أنهى حديث نفسه وترك الأحساس بأول خفقة قلب خلفه في سيارة خاله  
واتجه ناحية باب الحجرة ليجد شباب العائلة خارجها, تهامس مع عمر  
وعرف ما كان

- مقرف ما تقول, كيف لها أن تجعل من هذا البرئ صفقة, ألا يشبع تلك  
المريم مال أو جاه, ألا تنتظر لحال أمنا وجنات وبالرغم من هذا يتمتعن  
بالرضا

رد عمر

- الماء المالح لا يروي العطش, وزوجة خالك لا يروي طمعها مال, كنت  
ألومه قليلاً على خطبته لياسمين لكن بعد ما سمعت, هذا الرجل يحق له أن  
يتزوج عليها ألف وليس واحدة

- لكنها بالفعل واحدة بألف يا عمر

قالها محمود وحاصره الندم فاشتعل وجهه إحمراراً بدماء خجله, أنصت  
عمر لهمس محمد

- ما الذي تقول!!

تلعثم محمد وتعثر لسانه بكلماته, خجلت عيونه فنحاشها بعيداً, ابتسم له عمر  
الذي فهم حال أخيه فقال وهو يشد على كتفه

- عجباً لأمرك, ألقيت خلف ظهرك كل من أعجبت بك, ثم لم يدق قلبك إلا  
لخطيبة خالك!! دعها وشأنها

هز محمد رأسه مؤكداً على أن هذا ما قرره, وبينما محمد وعمر يدفعان  
عن خالهما الخيابة حتى بالتفكير, كان عماد بالداخل يحاسب مريم على  
خيانته, يتمنى أن يقتلها ويقتل الشر معها, لكن دموع ابنتيه هاجت كبحر  
ارتفعت أمواجه فلم يقو على الصمود أمامها

- سأستجيب لرجائكم, لكن لن تخرج من هنا وهي زوجتي, وستتنازل عن  
كل شيء حتى بناتها, ولن تعود إلى البيت مرة أخرى, ستخرج من المشفى  
إلى بيت أبيها مباشرة

نظرت مريم إلى ابنتها غيداء والتي أصبحت الأمل الوحيد لها

- سأذهب مع مامي ولن أتركها

حاولت غيداء بكل الوسائل إقناع عماد بالذهاب مع أمها لكنها لم تفلح,  
اضطرت مريم تحت وطأة الحدث ونهاية زيجتها التي تلوح في الأفق  
الحصول على أي مكسب ولو بالقدر القليل فقالت وهي تصطنع الضعف

- هل يمكن أن أعود مع بناتي ليوم واحد فقط, ثم أرحل بعدها

حاولت دنيا وسماح وجنات الحصول على استجابة عماد لطلبها بنظرات  
الرأفة, إلا أن عماد عاجلها باستهزاء

- ما تلك المسكنة, يكاد قلبي ينفطر لضعفك ... ثم أكمل وقد علا صوته

- هل تظنين بي هبل, أعلم أنك تريدين الذهاب لتأخذي المجوهرات والنقود  
المخبأة من خلف ظهري, كنت أظاهر بعدم المعرفة عليكِ تشبعين, لكنك  
كالطوفان كلما أغرق أراد المزيد, دخلتي حياتي بملابسك وستخرجين بها,  
ولن تطأ قدمك بيتي مهما حدث, وإن فعلتها سأسجنك بالأقرار الذي  
ستوقعينه بفعلتك

هزت دنيا كتفه

- رويدك يا عماد

تنهد عماد بعمق وهو يردد

- النبتة الخبيثة يجب أن تجتز من عمق الأرض, لو تركت جزء صغير  
منها ستنتشر مرة أخرى في وقت لاحق... ثم وجه نظره مرة أخرى لمريم  
وهو يكمل

- لا أريد أن أراكِ ثانية, اجعليني انساكِ

اضطرت مريم للتنازل أمام المأذون عن حقوقها كاملة وعن فتايتها, كتبت  
له إقرار بما فعلته وشهد عليه د محمود ود محسن, حتى سيارتها كتبت له  
تنازلاً عنها, جردها عماد من كل شيء كما وهبها كل شيء, عادت مريم إلى  
بيت أبويها تجر أذيال الخيبة, لم تعد تمتلك من الحياة إلا تلك الجدران  
ومعاش والدها الذي لم يكن ليفي بأجر خادمتها, لقد جردها عماد من كل ما  
ظنته أسلحتها, متناسية أنه كان سلاحها الأعز والأقوى, ولأول مرة في  
حياتها تواجه نفسها

- ءأستحق؟ نعم!! فأنا التي لم تحافظ على النعمة التي كانت بين يديها,  
عماد رجل كريم وشهم لم أر منه إلا الخير, وبدلاً من إسعاده سممت حياته  
بالطمع فكرهني ومال لغيري, أهله الذين عشت أتخايل عليهم وأنصب لهم  
شراك الفرقة هم من وقفوا بجانبني اليوم, ظننت الميراث مالاً لكن وبعد  
فوات الآوان فهمت أنه بشر لن يجود الزمن بمثلهم, وحيدة بين جدران  
صماء لا أملك إلا معاش والدي, غلى قدري وتبخر مائي وفرغ إنائي,  
لكن أنا من اشعلت عليه النار.

اختفت مريم من حياة عماد وأفل معها نور ضياء, الملاك الذي أحبه من كل قلبه, دفنه بجانب والده ليرقد بمحازتهما عندما يحين الأجل, لو عاد معه لتبناه وكان له الأب الذي لم يكن, لكنه عاد بسؤال مزقه عن ماهية تلك القلوب الحجرية؟ حتى الحجارة منها ما يتشقق منه الأنهار!! أب يستمتع ويفر!! أم تلد لتبيع طفلها وأخرى تشتريه!! طبيب نسي الشرف والقسم من أجل بضعة أوراق مالية, فهل سيأتي عليه الوقت الذي يقف فيه عاجزاً مثله عن انقاذ روح غالي بأمواله مجتمعة؟ ربنت كفه على قلبه وذكرته بحمد ربه على نفسه الطيبة, لكنه الآن يخشى على غيداء من تشابها بأمرها وتمسكها بالاقامة معها, ستتأثر لا محالة, ستفقد التمييز الذي يشكل روح الإنسان إما البشرية الأنسانية وإما البشرية الشيطانية, لكن يبقى في بعض الهدم بناء وهو على يقين من هذا, في يوم واحد ضرب زلزال الحقيقة أرضه وحفر بها مدافن لأموات وأحياء, مات ضياء وسقطت مريم, لكنه لن يسمح للطمع بضياح فتاتيه وتشتيتهما.

وعندما تُظلم سماءنا لا نرفع هاماتنا إلا لرؤية النجوم, برق شعاعها في قلبه, فتنهد بعمق وشوق, تلك الياسمين التي لم تمنحها الحياة إلا الشقاء والحزن والفقر وبرغم هذا حافظت على روحها من تلوث الطمع, كم يتمنى لقاءها الآن ليسبح في بحيرة رقتها وطيببتها فيتساقط الدنس الذي لوث ذاكرته ويرحل, الإجهاد يأخذ منه الكثير والحزن أكثر, شعرت سماح بارهاقه فطلبت منه ترك الفتاتين عندها ليومين تستريحان فيهما مما حدث والذي من الطبيعي أنه أثر عليهما بالسلب, خصوصا عادة التي لم تجف دموعها حزناً على ضياء وعلى الصدمة التي تلقتها في والدتها.

أخذته أقدامه إليها, إلى بلسم جروحه العميقة علها بنظرة سحرية تشفي أوجاع روحه, لم يجدها في ورشتها, رنين هاتفها يعلو ويعلو معه نبض قلبها

- أنتظرك أسفل البيت في السيارة, أحتاجك بشدة

ارتدت ياسمين ثيابها بأسرع ما أمكنها, فإن كان هو يحتاج اليوم لها فهي لن تحتاج لغيره يوماً, وإن كان يريد رؤيتها تلك الدقيقة فهي لا تريد أن تزيح عينيها عن وجهه دقيقة, لمست دبلته التي احتلت سبابتها اليمنى وتأبى الانتقال لليسرى, لكنها تُقدر ما يقاسيه, فإن لم يرفق الأحباء ببعضهما فمن يكون الرفيق!!

وبابتسامة انتزعها من بين غابة أشواكه الكثيفة قابلها

- سنتناول إفطارنا معاً في الأزهر

المآذن تعلو بصوت الأذان وتنهيدته ترتفع بوغز الألم, رائحة البخور تنطلق لتحرر روحه من محبسها الضيق, الجو مريح للنفس وزاده وجودها براح, تنفس شهيق عميق وأخرجه محملاً بدخان الكراهية التي لم تحتل يوماً صدره فضاق بها, أشارت له

- ما بك؟

أذنيها لا تحتمل ما تسمع, عيونها تتكلم بحديث قلبها, حمدت الله على نعمة خرسها الآن فقط, فما الذي يمكن أن يقال!! انهمرت من عينيها دموع وهي تشير

- مسكين ضياء, رحمه الله

نكس عماد رأسه بأسى

- لم أكن أتخيل كم الخداع الذي أحياه

ومن بين دموعها ظهرت في عينيها شبح ابتسامة وأشارت

- ثق أن ضياء روح حرة نقية, أراد الله لها أن تزورك وتعيش في كنفك عام, لتلتقيا على خير في الجنة بلا فراق

يالاً الطمأنينة التي تمنحها القلوب الصافية

- وجودك يا ياسمين هو من هون علي الصدمة, لقد منحني الله النقيض حتى لا أكفر بأنسانية البشر, فكما توجد مريم توجد ياسمين, النور وسط

الظلمة والعطر بين العفن, النبتة الخضراء التي ستحيي أرضي بعدما أكلها  
حريق الطمع

خجلت ياسمين من إطرئه فنكست رأسها قليلاً ولم ترد

- والجميل فيما حدث أننا سنتمم زيجتنا, كُسرت القيود

أشارت

- وفتاتيك, ألا يحتاجان لبعض الوقت للاتزان النفسي بعد العاصفة

تردى عماد في بئر أفكاره, روحها الشفافة تكشف عما يجول بخاطره بلا  
شرح, عادة لن تسبب المشكلات فهي طيبة وهادئة ومتزنة, الخطر يكمن  
في روح غيداء, ظل مريم وتابعها

أشارت ياسمين

- أرى أن ننتظر حتى تستقر الحياة بينكم بدون والدتهم

قالتها لكن ليس من أعماقها, هي قشرة سطحية على قلبها المتلف للإقتران  
به, الخائف من فراقه

هز عماد رأسه بالرفض

- لن ننتظر, رتبي أمورك, سننزوج أول أيام العيد

جناحي الخجل والحب رفرفا بها على أرض الأمان والطمأنينة التي  
ستقرشها له بالزهور الوردية والأخضر من كل خير, التقت عيونهما  
ببريق السعادة ليقطع شعاعهما رنين هاتفه

\*\*\*\*\*

ليست بالأم التي تغفل عن ابنائها مهما كبروا, محمد ليس في حالته  
الطبيعية, صمته الزائد, انعدام رغبته للطعام, انزوائه في غرفته, ربتت  
على كتفه بكفها الحاني فأمسكها وقبله

- ما بك يا محمد؟ حالك لا يعجبني

ابتسم لها وبادلها ربتة كتفه

- لا شئ يا دنيتي, ارهاق العمل والماجستير مجتمعين

- وهل من جديد, لك أكثر من عامين فما الذي جدّ؟

تنهد رغماً عنه فحدقت في عينيه

- هل هناك من تشغل بالك؟

بُهِت د محمد من ذكاء أمه وقوة إحساسها

- من أين جاء هذا التخمين؟

تبدلت نظرة دنيا من الاستفسار إلى اللؤم

- هل ستمكر على أمك؟ هناك من تشغل بالك فمن هي؟

لن يخفي عليها, يريد أن يخرج من صدره ما يغلي به عله يهدأ

- هي آخر هي كان يجب أن تشغلني

انزعجت دنيا, من تلك التي تستعصي على محمد بخلقه وأدبه وعلمه

- مهما كان مستواها لا تخف, سأفعل أي شئ لإسعادك حتى لو كان نصيبي في وكالة جدك

احتضنها محمد ثم ألقى برأسه على صدرها يتلمس الراحة والطمأنينة

- الأمر ليس ارتفاع مستوى, أريد مصارحتك لكن ....

- لا تخش شئ

صمت قليلاً, لا يعرف كيف يخرجها من بين شفثيه

- ياسمين

ضربت دنيا صدرها بكفها وهي تقول

- خطيبة خالك؟

هز محمد رأسه بالإيجاب, اندهشت دنيا متى تقابل معها ليعتمل هذا  
الشعور في قلبه؟ وما موقفها هي؟, لمح محمد تساؤلاتها في ملامحها  
الغاضبة العابسة

- ياسمين لا تعلم, لا تقلقي

أخرجت شهيقاً محبوساً بين أضلع الخوف

- وخالك, إياك أن يشعر بشئ

ثم سالت دموعها تبلل وجناتها وهي تكمل

- كفاه حظه العثر, كفاه آلامه وفقده, لم يحظ من الحياة إلا بحبها, فليس من  
الأنصاف أن يشعر أن هناك من يرقب فشل علاقتهما

- أنا لا أتمنى فشلهما, حتى أحاسني بها جاء دون تعمد, تعلمين أن أمر  
المشاعر لم يكن ليدق على خاطري

رق قلب دنيا لابنها لكنها عاطفة لن تعلو فوق خوفها على عماد

- أعرف يا محمد أن كل ما يشغلك مستقبلك والسفر للخارج, لكن لا تنسى  
أن من يشجعك ويدعمك هو خالك, الذي لم نر منه إلا كل الخير

أغمض محمد عينيه, وهز رأسه مطمئناً إياها

- لا تخافي, خالي ليس قرّة عينك بمفردك, وهذا ما يجعلني في ما أنا فيه,  
ألقيت بحملي أمامك لأنك الوحيدة التي ستحمل عني دون لوم

مسحت دنيا بكفها الحاني على رأسه, خرجت وتركته يحاول تفتيت صخرة  
الحب القابعة على قلبه وتأبى الإزاحة.

\*\*\*\*\*

صوت سماح يأتي مرتجفاً, لا يفهم عماد أغلب كلماتها

- أهدي لأفهم, ماذا حدث؟



التقطت سماح أنفاسها اللاهثة

- غيداء غافلتني ولا أعرف أين ذهبت, وهاتفها مغلق

شحب وجه عماد لكنه طمأن أخته

- أهدأي, في الغالب ستذهب لوالدتها, سأذهب إليها وأحضرها وسأطمئنك

- خير بإذن الله, طمئني يا عماد فور إيجادها

امتعض وجهه وزم شفتيه, ثم نظر لياسمين

- لا أعرف ما نهاية ذلك الحبل الذي لا يظهر له طرف, المشاكل تتعاقب  
بلا توقف

أشارت له ياسمين

- بهدوء, ويمكن أن تتركها لبعض الوقت عند والدتها حتى لا تكسر  
قسوتك المفاجئة, أجعل عودتها اختيار لا إجبار, المرحلة صعبة ولن تؤخذ  
إلا باللين

أجابها وهو ينهض

- تعبت

تسير بجانبه يصحبها سؤالها المتجدد, هل سترأه مرة أخرى أم أنه آخر  
اللقاءات؟.

ترك عماد ياسمين أمام مسجد السيدة عائشة لتصلي التراويح, ثم اتجه إلى  
السيدة زينب حيث بيت أهل مريم, طرق الباب لتخرج له مريم فى ثياب  
المسكنة

- تفضل يا عماد

- لا, هل غيداء هنا؟

هزت رأسها بالموافقة, رفع عماد هاتفه وطمأن سماح قبل أن يطلب لقاءها

- أريد لقاءها

حاولت مريم دعوته للدخول إلا إنها كانت محاولات يائسة تشف عم صار  
يعتمل بداخله نحوها, ذهبت مريم ثم عادت بغيداء الخوف يلتهمها من  
مقابلة عماد بعد هروبها من عمتها

- لا تخافي يا غيداء

ثم اقترب منها وأخذها بين يديه بحنان وهو يربت على رأسها, بكت غيداء  
على صدره

- ما رأيك في نزهة قصيرة مع رجل عجوز مثلي؟

انكشيت غيداء ثم قالت

- ولو أردت العودة لأمي هل ستعيديني

- نعم سأعيدك

تعلم غيداء أنه محال لأبيها أن يقطع على نفسه وعد ثم يغدر فهتفت بدلال

- وعد

ابتسم وهو يجذبها من كفها

- وعد

صحب عماد ابنته بعيداً عن عيون وآذان مريم , لم يعد يطيق التواجد معها  
في مكان واحد, تحملها فوق استطاعته لتأتي آخر أخطائها وتقر بقدرتها  
الفائقة على المكر وشرائها للمال, فأى حياة تلك!! ألم تتعلم شيئاً من دنيا  
التي اكتفت بالحاج جلال وعاشت في كنفه لا تريد من الحياة إلا رضا ربها  
ورضاه وتربية ابنائها على الوجه الأمثل, وسماح التي تشارك محمود  
مالها فوضعت ميراثها في العيادة لتضمن مستقبلاً لهما ولأبنتهما, حتى  
جنات التي تتأفف من معرفتها كانت أرملة فقيرة وعاشت في ظل والده  
تخدمه وترعاه ولم تطلب منه ما يؤمنها, كان تأمينها الوحيد وفاءها وحبهم  
لها, خرج عماد من أفكاره بهزة خفيفة من كف غيداء, غاب في عينيها

- لماذا هربت من عمّتك؟

نكست رأسها بخجل

- لقد طلقت مامي وطرقتها من بيتها, أخذت منها المال والسيارة, فكيف أتركها وحيدة بعد كل هذا؟ أمي وأنا أحبها

شعر عماد بسّم مريم يسرى فى كلمات ابنته

- معنى هذا أن ما حدث كان مقبول من وجهة نظرك

هزت غيداء رأسها بالرفض

- بالتأكيد لا, لقد حزنت من أجل ضياء الذي كان نسمة رقيقة بالنسبة لي, حزنت أنهم حولوه لبضاعة, مسكين

ثم أجهشت فى بكاء شديد, عندها ترددت فى أذنيه همسات ياسمين, كم كانت محقة, فتاته تمر بمرحلة تمزق وأزمة نفسية ويجب عليه الوقوف بجانبها, كفكف دموعها بكفيه وهو يقول

- كبرت يا غيداء, وأعتقد أنك ستتفهمني ما سأقول, هل تعي معنى أن يصل إنسان لما وصلت له أمك فى عقد تلك الصفقة القذرة من أجل الاستحواذ على الميراث؟ هل تتفهمين شعور رجل كل ما يهم زوجته ماله, وكل ما تخطط له ماذا سيحدث بعد موته؟

- أعرف, لكن لا تنسى يا دادي وبمنتهى الصراحة أنها خافت من زواجك بأخرى

كلماتها لا تعني إلا أن مريم أعلنت عليه حربًا من نوع آخر, حرب ضد زواجه من ياسمين, وغيداء بتلقائيتها كشفت عنها

- كل ما أطلبه منك أن تحكمي على الأمور بمفهومك لا بمفهوم غيرك, بتربيتك وثقافتك لا بعصبيتك, أنا وأمك متزوجان منذ تسعة عشر عامًا لم أحرّمها فيهم من شئ, طلباتها مجابة مهما غلت, وأعتقد أنني لست في حاجة لدليل, أليس كذلك؟

هزت رأسها بالموافقة فأكمل

- فهل ظهور الأخرى سوء في, أم في شكل الحياة معها

لم تستطع غيداء التفوه بكلمة, ترى في عينيه عذابه وتشتته, تكبر أمها عليه وعلى عائلته التي وقفت ضد فضيحتها وأختها, لكنها تذكرت ما أوصتها به أمها

- موافقة على كل ما تقول, لكني لست بجانب حرمانها, هي زوجتك كما قلت, لها عليك حقوق من الظلم منعها

ربح عماد الجولة بإقرار ابنته بحقه في الطلاق وزواجه من أخرى, لكن ما يريده حقًا تهدئة ذهنها من التشتت التي تغمسها فيه مريم

- وما حكمك؟

وبنظرات ترقب وشك قالت

- هل ستأخذ به؟

ابتسم لها بحب وهو يهز رأسه بالموافقة

- أعد لها السيارة وامنحها مصروف شهري لتحيا في مستوى ليس بأقل مما كانت فيه, وخصوصًا لأنني سأعيش معها

رفع عماد كفيه ليحتويا رأسها ثم قبلها في جبينها

- من أجلك فقط

سرت السعادة في شرايينها فتعلقت برقبته وهي تهتف بفرحة طفولية

- شكرًا يا دادي , لم أتوقع موافقتك

- يا غيداء, كل ما يعنيني هو سعادتك أنت وأختك, ثقي من هذا, لكن سأوافق على وجودك معها بشرط واحد

- ما هو ؟

- مرري كلمات أمك وأوامرها على عقلك وقلبك قبل التنفيذ, وأنا على  
سعة من سعتهما... عديني يا غيداء

غاب فكرها قليلاً ثم عادت

- أعدك يا دادي

\*\*\*\*\*

طرقات متتالية على باب سماح, أسرعت عادة لتجد عمتها دنيا والحاج  
جلال وعمر, ألقت برأسها في صدرها تبكي

- الحمد لله يا عادة أنها كانت عند أمك

دعته سماح للدخول وقد نال الغضب منها

- لا تتخيلي يا أبله دنيا مدى انزعاجي وخوفي, لقد جفت دمائي حتى  
طمأنني عماد

رمقتها دنيا بنظرات حانية

- عندما سمعت ما حدث وبرغم ألم قدمي لم أستطع إلا المجئ للإطمئنان  
عليك أنت وعادة

زفر الحاج جلال وهو يقول

- الأحداث تتوالى بشكل غير مسبوق, كان الله في عون عماد

أسرعت عادة

- أخاف على أبي من حزنه, وعلى أُمي من وحدتها, وعلى غيداء من  
تشبتها

دنيا وسماح لا يُحبان مريم لكنهما عاقلتان, لا يذكرها إلا بالخير لأجل  
خاطر عادة الغالي, لكنهما ينقمان عليها ولا يغفران لها ما ألقت أخاهما  
فيه, ربنت سماح على كتف عادة

- الحياة لا تسير مستقيمة دومًا, لابد لها من بعض التعرج, المهم ألا نطاوعها ونقاوم تعرجها, وإلا لابتلعتنا في متاهاتها حيث لا خروج
- عندك حق يا عمتي, لكني أكبر ما أخشاه تعرج مسار غيداء, الوحيدة المجبرة بلا خيار

تدخل الحاج جلال في حديثهما

- لا إجبار في الثوابت يا غادة, التشتت هو لعبة الحياة المغرية, والإصرار على المبدأ هو مفتاح النجاة, لكن لمن تقوى نفسه على النزال, والانتصار للمبدأ هو أكبر متعة يحققها الإنسان

هزت غادة رأسها برفق, الحاج جلال هو المثال الحي لهذا الدرس الغالي, تزوج امرأة أبوها ثري لكنه تمسك بالأ ينتفع بجنية من مالها, لم يساومها أو يضغط عليها لابتزازها, لم يشعر بدونيته ويعذبها بها, بل تمسك بمبدأه وظل بيته مفتوح بعرقه وصبره وجهادهما معًا, لهذا منحته الحياة الجائزة الكبرى في أولاده, قاوم تعرجها وألزمها فتح الطريق المستقيم.

\*\*\*\*\*

بقوة نبضات قلبها كانت دقات كفها, تلقتها مريم بلهفة, فأخذت مريم كفيها ودارت بها وهي سعيدة

- بشريني يا غيداء, أراك تطيرين من الفرحة

- نعم, لقد وافق أبي على إقامتي معك واستعادتك سيارتك, والمفاجأة أنه سيمنحنا مصروف شهري كبير

غيداء لم تعرف بعد طبيعة أمها, لبعض الحب أبواب تغلق العيون وتصم الأذان عن العيوب, ووراءها ضباب يستر خلفه الحقيقة

- مصروف شهري والسيارة!! هل هذا ما استطعتي الحصول عليه!!

اندهشت غيداء

- وما الذي توقعت أكثر من هذا؟

- أن أعود إلى بيتي, إلى مكاني, مجوهراتي ومصاغي, ليس صدقة يلقيها لي ابن العطار ثم يجيى بأخرى لتتمتع بما كان لي

تبدل الذهول محل الدهشة, وبصوت مرتعش قالت

- أرى أنه كان رجل شهم بموافقته, هل نسيت فعلتك؟ رجل غيره كان مستحيل أن يوافق

ذعرت مريم من رد غيداء فارتفع صراخها

- تتكلمين كغادة, الآن أتضحت توأمتكما, هل نسيت أنه كان سيتزوج خرساء وكنت أحميكما وأحمي ميراثكما؟

انطلقت غيداء بفك عقدة لسانها

- بالغش والخداع!! لماذا لم يكن بالحب والمودة

اندفعت مريم وزادت عصبيتها وصراخها

- تلك انا ولن أتغير, هل ترغبني في العيش معهما؟

لقد أزاحت مريم الستار الثقيل الملقى على عيني غيداء, تعاطفت معها لكنها وكأنها تراها لأول مرة, ما كل هذا الطمع والغيب التي يسكنها, كانت تتخيل أنها ستسعد بتلك المكاسب التي ستجعلها تحيا حياة كريمة, أبوها كان محقًا عندما طلب منها أن تعي كل ما يقال بعقلها هي لا بعقل احد يستغلها ليحصل على أغراضه الشخصية, طاوعها ليمسك بيدها ويفتح لها دولا ب الحقيقة, لكن أين هي منهما؟

أم فتح لها عقلها مغارة علي بابا وأغلق صخرتها وأنساها كلمة السر, وأب فتحت له ياسمين صخرة بئر الحب المغلق على قلبه لتحرره !! وما بين مغارتها وبئر ضائعة هي.

\*\*\*\*\*

بعض الحصى يكون في تحريكه كأعظم الجبال, المتبقى من الشهر الكريم يمر كدقائق ليل الأسير, تتدلى وحيدة في حبل مشنقة السؤال الذي لا يبرح

قلبها, هل سيحدث ما يعطل زيجتهما؟ تنتظر اليوم الذي سيجمعهما بيئًا وطعامًا وأملًا واحدًا, كان يقف على باب الورشة يراقب شرودها, ابتسمت له فور انتباهها فعاجلها

- ما رأيك لو نتزوج في فيلا مدينة نصر؟

هزت رأسها بهدوء علامة الرفض وأشارت

- أنا أعشق الأزهر وخان الخليلي, أحب ناسك وأستشعر أني جزء منهم, لقد فقدت أهلي وهم عوضني عن من فقدت

ابتسم وهي تعبر بطيبة عن رغبتها التي تتوافق مع ما تمناه طيلة حياته, سيعمر بيت أبيه بتلك الزهرة النادرة الندية, سيحيا في أكثر الأماكن قربًا لقلبه والذي لم يذق التعاسة إلا عندما خرج منه, سيقترّب أكثر من عائلته, ستتوحد روحه بعد انقسامها, روح ذلك الشاب الذي تمنى يوما ألا يفارق الأزهر وأهله ولكنه اضطر تحت وطأة رغبات مريم أن ينقسم

أشارت باسمين

- فيم الشرود, من الذي أخذك مني؟

- لا يوجد على وجهها من يستطيع أن يأخذني منك, فقط أفكر, هل نذهب لطبيب قبل الزواج أم بعده؟

دهشت باسمين فاشارت

- لمن الطبيب؟

ابتسم لها بخجل

- لك

- هل سيفرق معك صمتي؟

أعلن الرفض سريعًا

- لا, إطلاقًا, أردت فقط أن أحقق وعدًا وعدتك إياه



أشارت ياسمين بثقة

- لا أشعر بنقص وأنا معك, على العكس أحببت الصمت لأنه كما عقد لساني عقد قلبي وقلبك معًا, وأنا على ثقة أن وجودي بجانبك هو من سيفك عقده, أريدك سببًا لشفاء صمتي كما شفيت حزني

لمح عماد في عيونها دموعا تتلألأ وبخنان الكون قال

- ولم الدموع؟

- كنت على استعداد أن انتظر ك العمر بأكمله, لكنها دموع فرح اقتراب قربك

كانت تلك المشاعر من تلك النفس الصافية كفيلة بأن تمسح عن عماد أحزانه, يسابقون الأيام لتدنو بهما من ذلك اليوم الذي تمناه وذاقا لوعة الاشتياق إليه, وكأن كل ما حدث كان ليتذوقا حلاوة القرب بعد الخوف من الابتعاد, هناك اللقاء بعد الخوف من الفراق, لكنها لا تعلم لماذا كانت تتكلم وملؤها أحساس بأن لقاءهم لن يكون على الأرض بل في السماء, تتملكها قبضة قوية في قلبها لا تنبسط, أحساس عميق بالحزن, حتى الدموع التي درفتها وأوهمته أنها دموع الفرح كانت دموع حزينة من قلبها الباكي.

مر الوقت في حديث لا ينتهي ولو بالإشارة, ليجدا عمر ابن دنيا يدخل عليهما يبدو عليه الأنزعاج, انفاسه اللاهثة تصعد وتهبط بصدره وهو يقول

- خالي, والدة غادة عندنا وتريدك على وجه السرعة

\*\*\*\*\*

بعض الرياح لا يعني هبوبها إلا الدمار, لماذا أتت مريم إلى آخر مكان كان يمكن أن تفد إليه؟ لحظة من الوجوم عقدت الوجوه بالدهشة والصمت, أفاق منها عماد ليتساءل بخوف

- ما الذي حدث يا عمر

- تقول أن غيداء مفقودة, وحاولت الاتصال بك إلا أن هاتفك مغلق ولم تجدك في البيت, فاضطرت للمجيء إلينا

هب عماد واقفاً وهو يضرب كفاً بكف

- غيداء, ما الذي يمكن أن يكون قد حدث؟

- لا أعلم يا خالي, لكن والدة غيداء في حالة لم أرها فيها طوال عمري

استأذن عماد ياسمين في الانصراف بعد ان أكدت عليه أن يطمئنهما على ابنته, انطلق بصحبة عمر إلى بيت دنيا ليس في ذهنه إلا أن ما يحدث مناوره أخرى من تخطيط مريم لتعطيل زواجه بياسمين, دخل البيت ليجد مريم ولأول مرة في حياتها في حالة إنهيار وما أن رآته حتى صاحت

- كارثة يا عماد, غيداء لم تعد منذ الصباح

- أين كانت؟

جففت دموعها بكفيها

- كان من المفترض أنها ستتناول إفطارها مع صديقاتها في النادي, تأخرت فاتصلت بها لأجد هاتفها مغلق, هاتف واحد من صديقاتها اللاتي كان من المفروض أنها معهن لتفاجئني بالمصيبة

أسرع عماد بلهفة

- أي مصيبة؟

- لم يكن هناك اتفاق لإفطارهن معاً

ضربت صاعقة الخوف قلب عماد وشحب وجهه

- أين يمكن أن تكون قد ذهبت, وهل معنى هذا أنها تعمدت الهرب؟

هزت رأسها بعنف وهي تضرب فخذيها بكفيها وتقول

- لا أعرف, أريد ابنتي يا عماد ... ثم دخلت في بكاء عنيف

رمقها عماد بقلق وحذر, يحاول أن يتقصى حالها

- اسمعيني يا مريم, أقسم بالذي خلقتني وجعلك ابتلائي لو كانت تلك خطة من خطتك فلن أرحمك, وسأستخدم إقرارك في سجنك

رفعت رأسها بضعف وعينيها تتلألأ بدموع الخوف

- أنت تعرفني جيداً, يمكن أن أفعل أي شئ لكن خطي الأحمر بناتي

رق قلب دنيا والحاج جلال لهوانها فانطلق الحاج جلال

- لا يمكن لأم أن تستخدم ابنتها في لعبة

منظر مريم ولهجتها لا ينبأ بأنها خطة, البنت بالفعل مفقودة ولا أحد يعرف أين هي, اقترب عماد منها

- أعطيني أرقام صديقاتها المقربات

مريم في حالة انهيار, الكل حولها يواسي حتى جنات ومنصور وسماح ومحمود اجتمعوا لمواساة عماد والوقوف بجانبه, الوقت يمر ولا يبشر بخير, لا أحد من صديقاتها يعرف عنها ما يمكن أن يفيد, الليل بدأ يهبط بظلامه وشياطينه, عماد سيجن, ابنته ستبيت حيث لا يعرف, أفكاره تمزقه وتعرض عليه كل سوء, ثرى أين هي ومع من؟ هل هي مخطوفة أم غائبة بإرادتها؟ الصراع ينهشه كذب شرس, الساعات تمر والقلق يرتفع حد السماء بلا نجوم هداية أو نور قمر, النساء يواسين مريم في بيت دنيا, والرجال مع عماد يبحثوا في المستشفيات والأقسام, اليأس بلغ ذروته, وعند بلوغ الذروة يبدأ منحنى الهبوط, ساد الصمت بينهم ليقطعه اتصال على هاتف عماد من رقم غريب, تلقاه عماد بيد مرتعشة وصوت مهزوم

- دادي, أنا غيداء

مسح عماد على وجهه فور سماع صوتها, وتتهد تنهيدة ألقى فيها حموله الثقيلة

- أين أنت يا غيداء؟

انفجرت الفتاة في بكاء عنيف

- أعتقد أنني لم أعد مهمة لأحد, أنت ستتزوج, ومامي تعرفت على رجل في النادي ولم يعد أحد يجهل صلتها به, عادة ارتبطت بعمر, من منكم يحتاجني أو يشعر بوجودي, لن أحيا كالكرة تتلقفني الأرجل .. سامحني يا دادي

تماسك عماد وأمسك جفنيه على دموعه

- ما معنى أنك كالكرة؟

ازداد بكاءها

- لست على استعداد للعيش مع زوجتك أو زوج مامي, لذلك سأعيش بمفردي حتى لو كانت حياة أقل لكنها ستكون ملكي, أفضل من أن يمتلكني غرباء

أسرع عماد

- عودي, وسنتفاهم, أين أنت ....

جاء صوتها ضعيف مملل

- بكل أسف, طالما الوضع على ما هو عليه, فلن أظهر

انقطع الخط فجن جنون عماد, اطمأن على فتاته لكنه لا يعلم أين هي, حاول طلبها مرات ومرات لكن لا مجيب, فتاته الجميلة الصغيرة لا تعي أنها ستكون حَمَل وسط الذئاب, أين خبرتها التي ستسمح لها بالتميز, ستضيع وسط الجموع الجائعة, الكل يحاول تهدئته, وما أن دخل بيت دنيا إلا وصرخ في وجه مريم

- هل هناك رجل في حياتك تتوين الزواج منه؟

أطالت مريم النظر لوجهه, هذا لا يعني إلا أنه عرف أين غيداء فصرخت

- أين غيداء أولاً؟

- مختفية بإرادتها, لا تريد أن تعيش مع أحدانا وخصوصاً بعد قصة زواجك

رفعت مريم رأسها بعناد وحدة ليسقط عن وجهها قناع الضعف

- هل كنت تظن أنني سأعيش لثلقي لي بكسرات خبزك أنت وحببتك الخرساء, سأقترن بطبيب مشهور وله قدره ووزنه ومن عائلة عريقة

لا يجد بداخله ما يمكن أن يُقال, هز رأسه بهدوء

- ارحلي الآن, سأحضرها واطمئنك

ترك عماد بيت أخته على غير هدى, لا يدرى أين سترحل به أقدامه الغائرة في بركة سوء الحظ, تلقى من ياسمين رسالة تخبره بأنها ما زالت في الورشة تنتظر الاطمئنان, أعاد الرد بأنه فى طريقه إليها, تلقته بعيون القلق وأشارت

- ما الأخبار؟

ألقى بجسده المثل على الأريكة

- مختفية بإرادتها

أشارت ياسمين

- لماذا؟

- تعرفت أمها على طبيب وستزوجه, وغيداء رافضة للوضع

هدأت قليلاً ثم أشارت

- وضع أمها فقط أم أباه أيضاً؟

هز رأسه موافقاً

- نعم, لا أدري ماذا أفعل, بلغت مني الحيرة واليأس سقف قدرتي

تنهدت بعمق, تشعر بحيرته وألمه

- كلمها وعدها أنك لن تتزوج طالما ستتزوج أمها, وأنت لها لا لغيرها

- وزواجنا

- ليس أهم من فتاتك التي تبيت الآن في مكان لا نعلم عنه, تعود أولاً ثم قد يصلح المستقبل ما أفسده الماضي, هاتفها وطمئنها

- طلبتها مراراً لكنها لا تجيب

- ستجيب, كلما ازداد ظلام الليل على فتاة مثل غيداء سيرتعد قلبها, وستجيب

يعلم أن ما ينطق به لسانها ليس ما ينبض به قلبها, يعلم أن غيداء نسخة أمها وما ترفضه اليوم لن تقبله غداً, لكنه للأسف لا يجد أمامه سبيل يسلكه إلا هذا, طلب الرقم الذي هاتفته منه وللغرابه أنها أجابت

- دادي

- سأتي لأخذك حيث أنت, ولن أتزوج, سأعيش أنا وأنت وأختك في بيت جدك

بكت غيداء بكاءً مزق قلبه

- أنت تقول هذا لأعود, ثم.....

نظر عماد لياسمين ودموعه تخنق روحه

- تعرفين وعود أبيك, سألبي رغبتك, لكننا سنحيا في بيت جدك, والآن أين أنت؟

ساد الصمت بينهما, لم يعد هناك ما يمكن أن يُقال, همّ عماد بالكلام إلا أن ياسمين رفعت كفها لتمنعه ثم أشارت

- لا داعي, سيبقى هناك أمل مهما حدث

\*\*\*\*\*

في الشدائد تشف الضلوع, عائلة عماد بأكملها قلوب صافية, لم يغادر أحدهم بيت دنيا, الوجوم يقبع على الرؤوس كالغربان السود, تنعق في الأذان بالخوف والقلق, فتاتهم الصغيرة بدأت في الخروج عن المألوف, د محمود قال بهدوء

- أخشى على غيداء من الوقوع في مرض نفسي بسبب التشنت, الفتاة أصبحت تصرفاتها غير محسوبة

جمدت سماح نظرها لعينييه وهي تهمس

- عندك حق يا محمود, الهرب لا يعني إلا ما تقول, وهو بداية لما قد يتعاقب على عقلها الصغير

دنيا ليست على قدر من التعليم لكنها على قدر كبير من الأمومة

- مرض نفسي!! في الماضي لم تكن لفتاة الجرأة على الهرب من أسرتها مهما حدث, تلك الحوادث لم نسمع عنها إلا مع انهيار الأخلاق وغياب دور الأم, وزيادة العلم مع قلة الدين

رد الحاج جلال مؤكداً على قولها

- لماذا لم تخبر والدته غيداء عماد بنيتها في الزواج بدلاً مما حدث؟ لماذا يعتبر الوالدين الطلاق هدم لكل ما بُني في السابق؟ أين المعروف والفضل والميثاق الغليظ, أين الحكمة في الحرص على الابناء؟ كلما تقدمت المدنية انتحرت الأدمية

أكملت دنيا بشفقة

- هي وأمها لا يعنيهما إلا الضغط على عماد ليحبسها باقي أنفاس عمره

أطال د محمود التعمق في كلامهما ليقول

- فيم تقولان كثيراً من الحق, لكن غيداء فتاة صغيرة مدللة, نشأت في ظروف مادية رغبة, لم تعرف التضحية والإيثار, لم تعي معنى الصبر

ومكافحة الضغوط, ثم وعلى غفلة منها يتفكك بيتها, تتلفت حولها لتشعر  
بالضياع, ما تمر به طبيعي لظروفها ونشأتها

ارتفع صوت غادة بالبكاء

- أخشى عليها من نفسها

ربتت جنات على كتفها واحتضنتها فألقت غادة رأسها على صدرها

- عماد لن يترك أختك للرياح تتقاذفها هنا وهناك, كوني على ثقة أنه  
سيعود بها مهما كلفه الأمر ومهما كان الثمن

تهدت دنيا تنهيدة بطعم المرار

- لن يكون الثمن إلا قلبه المسكين

ثم أسندت رأسها بكفها وعينيها تتجول في الوجوه الآسفة على رجل لم  
يأخذ من وردة الحياة إلا جراح شوكتها.

\*\*\*\*\*

متكورة في سرير الغربة كالقطة, يموء قلبها بألم الوحدة والخوف, تنظر  
إلى الباب المغلق بالمفتاح لكنها تتوقع اقتحامه من شدة الفزع, رن الهاتف  
فانتفض جسدها الصغير المرتعش, هداً قلبها عندما جاء صوته

- أنا بالأسفل

عماد يتجول بنظره في أرجاء المكان, فندق صغير قديم لا يليق بمكوث  
فتاة مثلها, حمداً لله أنها اقتنعت بقدومه, لا أحد يعرف ما الكارثة التي  
كانت ستجرها أقامتها في مكان كهذا, أطلت عليه من أعلى حاملة حقيبة  
ظهر, نزلت الدرج ببطء تحمل ملامحها الخجل والخوف, أشار إليها عماد  
فتبعته بهدوء, لم يتفوه بكلمة طوال الطريق, يبدو على قسماته شيخوخة  
هاجمته في ساعات, لقد كبر عمراً فوق عمره, جيوب الأرق انتفخت أسفل  
عينيهِ, الحزن ابتلع بريق حدقتيه, الوجوم كسا وجهه بشحوب ورقة  
أوشكت على السقوط, رق قلبها لحاله إلا أنها منعت نفسها من الاعتذار,



تخشى تراجعها عن وعده, دخل بها الأزهر وقد أوشك ثلث الليل الأوسط على الانتهاء, لم يستطع الصعود لبيت دنيا, أمر غادة بالنزول فصحبوها جميعاً إلى أسفل للإطمئنان على غيداء, شدت دنيا على كتف عماد

- أنت جبل لن يخر

همس لها

- قامت قيامتي, وما أنا الآن إلا قاعاً صفصفاً

فتح عماد بيت والده وقلبه يسقط في أحشائه, ذلك الصرير كان يتمناه وهو يحمل ياسمين بين يديه, وها هو عاد صفر اليدين, الغصة تتناوب على قلبه ومدامعه, لماذا تحول الحياة دائماً بينه وبين ما يحب؟ ألم يحق له أن يلتقط أنفاسه على صدر الفتاة التي أحبها, لقد لهث في رحلة يبدو أن تذكرتها كانت ذهاب بلا أي عودة مع امرأة وضعت له من العوائق ما يمنعه الرجوع أو التقدم, سحبت غادة أختها من يدها إلى غرفتهما, أخذتها في أحضانها ومسحت على رأسها بخنان

- ما فعلته كان خطأ لن نتحدث عنه لكنه لن يتكرر

هزت غيداء رأسها مؤكدة على الموافقة

- هيا نجهز السحور وندعو أبي إليه

لم يلبي عماد دعوة غادة لتناول الطعام, لكنه طلب منها فنجان من القهوة مع زجاجة مياه, جاءت القهوة ترتفع أدخنتها في يد غيداء, جلست بجانبه بهدوء, أنصت لصمتها, يعرف أنها لا حيلة لها في قلبها, لن يحاسبها على رفضها لكن على طريقته

- أعرف أنك غاضبمني, لكني لا أستطيع مجارة كل تلك الأحداث العاصفة, لقد جاء ضياء وجمعنا على حبه, ثم فجأة يتحول كل ما حولي إلى رماد, لأجد نفسي مجبرة على الحياة مع إحدي الغريبين, إما زوجتك أو زوج أمي, كل ما أتمناه أن تشعر بي وتسامحني .... ثم غاصت في بكاء عميق

احتضنها عماد ليحمل صدره عنها ما تحمله من ألم

- لست غاضبًا، يجب أن تعلمي أنك وأختك أغلى ما لدي، كان يجب أن تخبريني بنية والدتك في الزواج قبل ذلك التصرف الطائش و تذكرني أنه ليس الأول!! هل مات أبوك لتأخذي قراراتك بمفردك؟

هزت غيداء رأسها في خجل

- لو صدر منك تهور أو طيش مرة أخرى لن أسامحك ولن أعاقبك، لكنني سأحيا غاضب عليكِ مهما فعلتِ

تنهدت غيداء بعمق، ياله من أب رائع لم يقسو ولم يعاقب، استشعر ما بداخلها من حريق فأطفأه بدماء قلبه

- ألن تأتي لتأكل معنا؟

- لا، لم يترك لي الخوف عليكِ أي شهية

ابتسم لها بما استطاع تجميعه من روحه المنهكة، ثم جلس وحيدًا في الشرفة التي أحبها وزاده تعلقه بها زهور الياسمين التي تملأ رائحتها أرجاء المكان، ينفخ دخان سجائره وينفث معه أفكاره المشتتة، إلى متى ستظل ياسمين وحيدة؟ صحيح أنه يشعر بذات الوحدة النفسية لكنه يحظى بالعائلة والونس، فهل يُحلها من وعدّها أم يُبقى على الأمل كما تقول.

\*\*\*\*\*

الأمطار ليست بالتمني!! هي سحاب ثقال تقابلت لتحياي موات الأرض، فما بال سماءها تضن بالرداذ لتحياي قلبها الذي أوشك على التشقق، الفراق كأنه وعدّها وما سطر على جبينها، الليل يمر كسلحفاة قررت أن تنتقل من طرف الغابة لآخرها، الوحدة والألم يمتزجان خلف ضلوعها لتندفق دماء الخوف من المجهول، عماد اللمسة الحانية التي ربتت على قلبها لتشفيه هو الآن الجرح العميق، الحرمان من قربه ووده نسج لها رداء يأس تأبى الالتحاف به، لكن الأمل ثقب لا تراه عينيها ولا تلمح نفاذ لشعاعه، كل ما حوله يجذبه بعيدًا عنها، تنهدت تنهيدة من لا حيلة له إلا الصبر، ستصبر

حتى يضيق الصبر ذرعاً بها, ولما لا وهو حبيبها وقلبها النابض فى صدرها, ستكتفى بظله الذى يحتويها ويشعرها أنها تمتلك العالم بأسره .

الشوارع مبهجة بليلة العيد فأين بهجتها؟ الناس خرجت لتبتاع لوازم عائلاتها فأين ناسُها؟ مر أحمد وزوجته وابنهما من أمام الورشة ولمحها, ألقى عليها السلام فردته, أشار لها بالتهنئة, تلمح شعاع بهجته بولده وأسرته الصغيرة, هل ضاقت تلك الحياة ببقعة ضيقة لها تغزل فيها أحلامها في الزوج والولد؟ أم أنها أخطأت الاختيار منذ البداية ؟ لمحته من بعيد قادم

- كل عام وأنت بخير يا ياسمين

أشارت بود

- وأنت بخير د محمد, كيف حالكم جميعاً

- كلنا بخير, وأنت كيف .....

لم يكمل د محمد جملته حتى لاحظ سعادة تغزو عينيها وضحكة أنارتها, التفت خلفه ليجد خاله يحمل بين يديه هدية, وما أن رآه حتى قال

- كنت قريباً من الورشة فأردت تهنئة ياسمين بالعيد

ربت عماد على كتفه

- رجل مثل خالك, تعرف الواجبات, كنت أثق أن بيت دنيا سيخرج من رحمه من سيكمل مسيرتي

خجل محمد من كلام خاله, هل هو إطراء أم عتاب موارب الأبواب؟ أسرع بالانصراف بعد عبارات التهنئة المتبادلة, رمقه عماد بنظرة طويلة حيث أخذته أقدامه, التفت إليها وهو يمد يده بهديته

- كل عام وأنت ياسمينتي

تنفست هواء امتنع الشهيق به فانسع صدرها بنسيم عطره وعبق حبه

- غداً التجمع العائلي لأول أيام العيد, أريد وجودك بشدة

دهشت ياسمين فأشارت

- وجودي سيسبب المشكلات, أخشى على فرحة غيداء بعودتك

- اتفقنا أن قرارنا مؤقتاً, قد يصنع وجودك المعجزة التي ننتظرها

نكست رأسها, تتمنى أن تسر له بأن هذا ليس زمان المعجزات, المعجزة الوحيدة فيه هو قلبه الغض, هزت رأسها بالموافقة وملاًها شعور بأن الباب لم يوصد بينهما بعد, فابتهج كطفل ارتدى حلتة الجديدة.

حملت ياسمين من حُلِيها للجميع وأهدت, الكل يحمل لها مودة خالصة إلا غيداء, تلك الفتاة تكرها بشدة وبلا سبب, رفضت هديتها بعنف وألقته على منضدة الطعام

- لا أريد هدايا من أحد

انزعجت العائلة من تصرفها العدائي, عاتبها الحاج جلال

- هل هكذا نحتفي بالضيف

احتدت غيداء وارتفع صوتها

- إن كان لا يعي أنه ضيف

لاحظ عماد تعبيرات الغضب الشديد على وجه محمد, لقد ارتفعت أدخنة حبه وثورته على إحراج ياسمين فاشتتمها عماد, عاتب ابنته بهدوء

- ياسمين ضيفتي ولها كل الاحترام, خذي هديتك ثم افعلي بها في الخفاء ما تريدين

لم تستطع غيداء تحدي أباه, امتعضت وزمت شفيتها حنقاً ثم تناولت سوار ياسمين وانصرفت حاملة معها رياح الغضب لتهدأ العاصفة, نهضت عادة لتجلس بجوار ياسمين وتطيب خاطرها بمرحها وذوقها

- جميل ما صنعت يديك ونقشت, تصميماتك مبهرة, لماذا لا تفكري في إقامة معرض في إحدى الفنادق الشهيرة؟

لمعت عيني ياسمين بقطرات الخجل مجتمعة بالسعادة فاختلطتا وأشارت - هذا ما أعد له

- لو أنهيت التصميمات فكم أتمنى أن أراها

ابتهجت ياسمين بطيبة عادة

- أنهيتها, لو قدمت للورشة سأريك إياها وأتمنى أن تعجبك وأن تشاركوني الرأي

تبادلنا الإبتسامات وتواعدتا على اللقاء في غمرة سعادة عماد بإنقاذ عادة للموقف, لكن ذلك النقش الذي حفرته غيداء صعب الإزالة, إنه وشم الكراهية الذي لا يمحوه إلا النار والألم, جلست بجانبه ليعيدها لبيتها, الحقيقة أصبحت نار تحت رماد يجب إزاحته مهما احترقت يديها وقلبها فأشارت

- طالبت منك يوماً طلب ورفضته والآن أعيده عليك

أطال عماد النظر لعينيها طويلاً

- أن تستأجري شقة بجانب الورشة

هزت رأسها بهدوء

- نعم

- هل مات الأمل بداخلك؟

- كيف والامل وهو ابن الحب الشرعي الذي لا يموت!! قد تضعف أنفاسه أو يخفت ضياؤه لكنه يبقى دوماً في انتظار طاقة نور لينطلق, لكنني تحملت غرفة السطح والذكريات الأليمة أكثر مما أحتمل

لا يعرف ماذا يقول!! أين تلك الطاقة التي تتحدث عنها لينفذ منها؟ لقد وضعت الحياة في بئر الحرمان واغلقت فوهته بصخرة عاتية من الواجبات التي لا يمكن الفرار منها

- عندك حق, غداً سأبدأ في البحث عن شقة مناسبة لكِ

مرت دقائق الصمت عليها ثقيلة, ليته رفض!! بينما عماد لا يشغله إلا اهتمام محمد بها

- ما رأيك في العائلة, هل استشعرتي مدى حبهم لكِ؟

أفاقت ياسمين من شرودها لتشير

- نعم, كلهم طيبون

- وما رأيك في عمر خطيب غادة؟

- هو وغادة لا يمكن أن يكونا إلا لبعضهما, يذكراني بأزواج العصافير الملونة الجميلة

- ابناء دنيا كلهم على مستوى عالي من الخلق والعلم والدين, وخصوصاً د محمد

ابتسمت ياسمين لاعتزازه بابناء أخته, وشكرت بحسن نية في شخص د محمد, ودّعها وانصرف, لم يهدأ قلبه تلك الليلة, لم يجد من يسر له بما يعتمل فيه إلا لنفسه فحدثها

- ياسمين تستحق أن تعيش في كنف رجل يحبها ويهبها الحياة, ليس من العدل أن أوقف بندول ساعتها, محمد خلوق وستحيا معه في اطمئنان ومودة.... صمت قليلاً ثم عاد ليكمل

- لكني أحبها, فهل سأقوى على رؤيتها معه؟ هل يمكن أن يأتي يوم وأحتضن أطفالها منه؟ هل سأستطيع التحمل؟

وبالرغم من تمزقه إلا أنه قرر الانتظار ليرى ما سيحدث في غده الذي بات يخشاه .

لم يعني لها موافقته على استئجار الشقة إلا أن خيوط الفجر انقطعت بداخله, ألن ينقشع ظلام بُعدهما؟ هل يمكن أن تكون موافقته شعور بمعاناتها فى تلك الغرفة التى شهدت أصعب أيام حياتها؟ أم لأنه انصرف بقلبه عنها فى زحام مسؤولياته؟ لم يتبق لها منه إلا وعدًا مؤجلًا وأملًا يائسًا وعلاقة ستبهت بمرور الوقت فى عينيه, وكلما مر الوقت دون ظهوره بعقد إيجار تكبر نبتة الأمل فى قلبها, إلى أن جاء اليوم الذى حمل ما كانت تخشاه, لقد فعلها

- استأجرت لكِ شقة قريبة من دنيا

انطفأت شرارة صدرها فبهتت عينيها, كان بداخلهما بالأمس وهج خفت

- أشعر بعدم سعادتك بالخبر

لم تستطع الإشارة, تساقطت من عينيها قطرات الأمل التى حاولت الاحتفاظ به وسالت على وجنتيها, تداركت حالها فيكفيه ما هو فيه, امتدت يدها إلى العقد وأشارت

- سينتهي عناء الذهاب والأياب

- وستكونين بجانب دنيا وابنائها

هزت رأسها بالإيجاب, استأذن فى الانصراف ولم تقده أقدامه إلا إلى بيت أخته, تهللت أسارير دنيا لرؤياه

- أين محمد؟

انزعجت دنيا من سؤاله

- ماذا حدث؟

- لم يحدث أي شئ, أريده لاستشارة طبية

محمد لا يستطيع رفع عينيه في وجه خاله, وعماد يستشعر ما يعتمل  
بداخله ويقاومه

- ما رأيك في ياسمين يا محمد؟

وبكل ما أوتي من حذر قال

- شخصية طيبة ورقيقة ومتميزة في عملها

لم يتوقع محمد ما قيل بعدها

- ما رأيك أن نتكلم رجل لرجل, إنس أني خالك, أعرف أنك على درجة  
عالية من الوضوح والاستقامة

ابتلع محمد ريقه الذي جف فجأة

- تفضل يا خالي

- هل تحب ياسمين؟

أخفى محمد وجهه خلف كفيه لدقائق, لقد فاجأه السؤال لكنه كما قال عماد  
واضح

- لن أنكر, حدث رغماً عني, وأرجو أن تسامحني, مشاعرنا ليست أضرار  
نستطيع السيطرة عليها, لكني .....

قاطعه عماد

- لا داعي لما ستقول, أعرف أنه لم يصدر منك تجاهها أي افصاح بأي  
شكل, وأرى أن نفاتحها

بهت محمد

- أنت من يقول هذا يا خالي؟

- نعم, ولو وافقت سأكون أول من يبارك تلك الزيجة, تعلم أن ما يهمني  
سعادة أحبائي, لقد قيدني اليأس في استكمال ما بدأنا, ومن الأنانية تجميد



حياتها على ما قد لا يحدث, لكن إياك أن تذكر لها أي شئ عن اتفاقنا ولا لأي من كان حتى نعرف نتيجته!

انصت محمد قليلاً ثم قال

- اعتقد أنه من الأفضل أن تعرف

- لا, دع لها حرية الاختيار, لو علمت باتفاقنا سترفض, لكن قل لي هل تشعر بمبادلة من تجاهها؟

نفى محمد برأسه

- لا أستطيع الحكم, هي تعامل الجميع بذوق رفيع

- ستعرف عندما تفتاحها

ظهرت نظرة حزن في عيني محمد

- لكن يا خالي, كنت أعد نفسي للسفر والهرب من ذلك الشعور الذي قد يخنقه الرحيل, فلا تحمل نفسك فوق طاقتها ولا داعي لظهوري في صورة أحلامكما

- ما سنفعله ليس من أجلك بل من أجلها

تعالى عماد فوق ألامه واحزانه وابتسم لمحمد ابتسامة تطمئن نفسه

- أتمنى أن تستطيع اقناعها لتسعد بعد ما مرت به من شقاء, لن أكون لص عمرها الذي يسرقه في جيب مثقوب, خالك لم يكن أنانياً يوماً

فتح عماد الباب على مصراعيه لمحمد وأفسح له الطريق, انهمك في عمله حتى لا يترك لنفسه أي وقت فراغ للتفكير, انطفأت سعادته وبهجته فلم تعد تصافح البسمة وجهه الا للمجاملة, وكلما شعر بوخز الحنين مع عدم قدرته لمداواته أو تسكينه دخل دوامة العمل لتأخذه بعيداً, لكنه ما أن يعود إلى البيت ويجلس بالشرفة قرب شجرة الياسمين إلا ويحاصره الاشتياق.

\*\*\*\*\*

لم يتوقع عماد ذلك اليوم وهو قادم لبيته أن يجد فتاتيه على الحال التي  
وجدهما فيه, يبدو على وجهيهما الحزن

- ما الذي حدث؟

نكست غيداء رأسها وأسرعت غادة

- مامي تزوجت د سالم بالأمس

- كيف عرفتما؟

ردت غيداء

- كنت بالأمس في النادي, تمنيت رؤيتها لكن إحدى صديقاتها أخبرتني  
بأمر زيجتها

تعجب عماد

- وما الغريب أو الجديد الذي أزعجكما, كنا نعرف أن هذا سيحدث

تنهدت غيداء بضيق

- كان عندي أمل أن تغير رأيها, أن يكون مجرد تهديد, استفزاز لك  
لطلاقها

امتعض عماد, مريم هي هي ولن تتغير

- اهتما بدراستكما, هي لم تخطئ لقد تزوجت على شرع الله, وهذا من  
حقها, فلا داعي أن نحمل الأمر أكثر مما يحتمل

هزت غادة وغيداء رأسيهما بالموافقة, دخل غرفته تحمله أفكاره, ماذا  
تعرف مريم عن ذلك الطبيب لتتسرع هكذا في الزواج منه؟ .

ظنت ياسمين اهتمام محمد بها في بادئ الأمر أمر طبيعي لشدة تعلقها  
بوالدته وتواجدتهما المستمر معًا بعد انتقالها بجانبها, لكن شيئاً فشيئاً بدأت  
تستشعر بأن د محمد يريد أن يشعرها بشئ أو يحدثها في أمر ولا يستطيع,  
كما لاحظت ابتعاد عماد المتعمد والذي كان يقتلها ببطء, لكنها تقف عاجزة

تجاهه, فمهما كان عِظم حبها له فهي لن تستطيع أن تهدر كرامتها التي  
تعتز بها, كم تتمنى أن تصف له حالها في فراقه, أن تشعره بحنينها إلى  
وجوده, إلى كل أحساس غالى شعرت به معه ولن تشعر به مع سواه ..  
وتسأله

- ألم يعصف بك الحنين كما يعصف بي؟ ألم تقابل في طريقك زهرة  
ياسمين واحدة تذكرك بما قطفت وألقيت خلف ظهرك, أم أن فقدان  
نصيبي من تلك الحياة؟

كانت شاردة في همومها عندما فوجئت بصوته

- مساء الخير يا ياسمين

ألقت عليه السلام ليكمل

- هل لديك بضع دقائق من أجلي؟

اشارت له بالجلوس وأفسحت له المجال للكلام

- أريد مفاتحتك في أمر ترددت فيه طويلاً

ملامح التردد تكسو وجهه فشجعت بهزة من رأسها

- لا أعرف من أين أبدأ لكنني حقيقة الأمر هي أنني أريد الزواج منك

بهتت ياسمين ثم نظرت إليه نظرة لم يفهم لها معنى, راحت في شروء  
طويل بفكرها وعينيها ثم نظرت إليه وأشارت

- لم أنا؟ أنا خرساء ومنتقبة

- لكنك رقيقة وطيبة وفنانة, يعجبني هدوئك وأدبك واحترامك

- ألن يفرق مع خرسى؟

شعر محمد أن المسافة تقترب أسرع مما تخيل

- علمت أنه بسبب صدمة نفسية وليس وراثيًا، وأنا كطبيب أعدك أن علاجه سيكون سهل أن شاء الله، أما عن نقابك فأنا لن ارتبط إلا بمنقبة، هذا ما أتمناه لنفسى، أنا لا أحب أن تكون زوجتى محطاً للعيون

- فهمت من كلامك أنك تحدثت مع خالك قبل مفاتحتي

اندھش محمد، هو لم ينطق اسم خاله

- من أين جاء هذا التخمين؟

ابتسمت بهدوء

- معنى أنك عرفت أن سبب خرسى نفسى، فقد تكلمت مع خالك

تردد محمد قبل أن يقول

- لا أعرف الكذب ولا أحبه، نعم فاتحته قبلاً لأنك كنت خطيبته

أشارت ياسمين

- كنت !!!

ساد الصمت ولم يعرف محمد بماذا يزيد، لقد تلقت ياسمين عرضه على محمل مختلف عم أراد فأسرع

- هل ضايقت عرضي، أم معرفة خالى؟

أشارت ياسمين

- كيف اتضايق ممن يحملون همي، لكن حقيقة ومع احترامي الشديد لشخصك أنا لا أفكر في الزواج نهائياً

قالت ياسمين بهدوء شديد كالذي يسبق العاصفة، لم يستطيع الدكتور محمد معه زيادة كلمة واحدة، حملة الإحراج والرفض خارج الورشة، لكنه لا يعرف أنه أشعل في روحها الجحيم، هل أرسل عماد ابن اخته ليعوضها عنه؟ أم انها رسالة خفية بين السطور بانها علاقتهم؟

\*\*\*\*\*

على جمر القلق والخوف ينتظر عماد نتيجة لقاءهما, دخل عليه محمد  
الوكالة ليس بالوجه الذي ذهب به

- لم توافق .... ثم توقف قليلاً وأكمل

- وعرفت أنك تعلم أنني سأطلبها للزواج

لم تمض أكثر من نصف ساعة على دخول محمد الوكالة إلا وتلقى عماد  
رسالة من هاتفها تطلب فيها مقابلته بالورشة, دخل عليها ليجدها فى حال  
لم يراها عليه يوماً, أشارت بعصبية

- كان يجب أن يكون فراقنا بنفس عظمة لقاءنا, وليس بتلك الطريقة

- أي طريقة؟

أشارت ياسمين والدموع تملأ عينيها

- لقد فهمت الرسالة من بين السطور, كنت أتمنى أن تقولها لي بطريقة  
أكثر إنسانية, هل احترتما فيم ستفعلونه بالفتاة الخرساء المعلقة بدلة فوق  
المزاد على د محمد, ألم أقل لك أن مشاعرك تجاهي لم تكن أكثر من  
عطفاً؟

لقد التوت الطرق واتسعت متاهتها بينهما فأسرع

- ما الذي تقولين!! ليست تلك الحقيقة, لقد فهمت الأمر بصورة خاطئة

كان بكاء ياسمين الصامت وتلك الدموع التى تهوى من عينيها طلاقات  
نارية فى قلبه لم يستطع معها المقاومة, رفع رأسها بكفه لتلتقى أعينهم

- أحببتك, ولم ولن أحب غيرك, محمد أسر لي بحبه لك ورغبته من  
الزواج بك, لم أرد أن أكون أنانياً وأحبس عمرك في قيدي

أشارت

- لو أحببتني حباً صادقاً كان يجب أن تكون

بدأت رأسه في الدوار, هل تسرع؟

- كنت أرجو سعادتك وكسر وحدتك, مريم تزوجت بالفعل وحالة غيداء  
تزداد سوءاً

نكست رأسها قليل ثم رفعتها وأشارت

- والحل أن أكون لغيرك؟ هل تعتقد أن د محمد يحبني؟ محمد رأى ياسمين  
الفنانة فانبهر بها بالرغم من صمتها, ياسمين التي مسحت أنت عنها  
شقاءها وحزنها, هل تعتقد لو أنه رأى بثياب بيع العطارة في الوكالة وأنا  
انتشجر مع منعم كان سيلتفت إليّ ولو بنظرة واحدة؟ محمد رأى في بريق  
الزجاج الذي جلت صداه يديك, ثم كسرتة بكل قوة

حاول أن يمسح عنها دموعها فابتعدت بوجهها

- أنا لم أفرط, أردت فقط أن تكون لك حياة قبل أن يعدو شبابك في الوحدة

- يعدو شبابي في الوحدة!! أنت لم تحبني فقط, أنت لم تعرف أيضاً كم  
أحبك!! كانت تؤنسني روحك قبل جسدك, تدفئني أنفاسك قبل صوتك ..  
لكن

أشاحت بوجهها عنه لدقائق ثم أشارت

- سأحقق لك ما أردت, سأترك المكان فلم يعد مكاني ولم يعد أهله ناسي

وجم عماد وارتفعت أنفاسه وأسرع

- لا يا ياسمين, إياك أن تفعلها, لن أستطيع

أشارت وهي تضع دبلته فوق المنضدة

- اعتبرني تزوجت د محمد وسافرت معه

ثم سحبت حقيبتها وخرجت بالسرعة التي لم يستطع معها عماد ملاحقتها,  
ركبت سيارة أجرة من الواضح أنها كانت في انتظارها وغابت عن ناظره  
كما تغيب الشمس عن الحياة لتترك وراءها ظلاماً دامساً يتلمس فيه طريقه

وحيداً, لقد صفعته صفقة الافاقة واختفت!! كيف تخيل أن يتنازل عنها ؟ كيف كان سيحيا وهي فى أحضان غيره؟ لقد صدقت عندما قالت أنه وجب عليه أن يكون أنانياً فى حبه, أن يتمسك بها لآخر قطرة فى دمه , كان الأمل يجرى فى قلبها حتى قطع هو شريانها وتركها لتتلفه ألماً وبكاءاً, أطفأ السراج الذى حاولت جاهدة أن تبقيه مشتعلأ فى سرداب حياته المختنق حتى أحرقها بناره, أسرع ليلحق بها فى البيت, صعد سلالمه ودق جرس الباب لكن لا مجيب, دقه مرات ومرات وفى كل مرة كان يراوده الأمل بأنها ستخرج عليه ليقبل يدها ويطلب منها السماح, لكن خرجت عليه جارتها من الشقة المقابلة

- لقد تركت ياسمين لك مفتاح الشقة والورشة

دخل الشقة ليذهله ما رأى, لقد جمعت أغراضها, قررت الرحيل وأعدت له العدة ولن تعود.

\*\*\*\*\*

ما أثقل الساعات التي تمضي كدهور فى غياب الأحباء!! الشهور تتعاقب وقلبه النابض توقف عن الحياة, لم يعد ذلك الرجل الذى كان يضم الجميع, رحلت ياسمين وأخذت معها العباءة التى كانت تحتويهم, أخذت العبير الذى كان يتنفسه ليسعد به من حوله, لم يعد حاله يخفى على أحدهم , الجميع حزين من أجله, حتى غيداء نفسها تلومها, ليتها ما حالت بينهما!!

لم يتوقف البحث عنها من الجميع طيلة عام كامل, رمضان يدنو وطيفها يبتعد, التجمع العائلي كان باهتاً, يبحث عنها فى وجوه الجميع ولا يجدها كأنها لم تكن إلا سراباً فى حياته القاحلة تبخر مع شمس الظهيرة ولن يعود, كلماتها الأخيرة تمزقه " اعتبرني تزوجت د محمد وسافرت معه ", تتردد قاسية على نفسه وتزداد قساوتها بمرور الأيام, لكن أين ذهبت؟ وكيف ستعيش بمفردها؟ كيف ستتدبر أمرها؟ يشعر بأن جزءاً غالياً أقطع من جسده, هل كان يحبها لتلك الدرجة دون أن يشعر!! لم يعد له اختيار إلا الإستسلام لتلك الحياة الباهتة الخالية من الحب والإنصهار فى روح تعرف ما يدور بخاطره من عينيهِ, لكن سرعان ما كان يغزوه الحنين ويحطمه

على صخور الأحاسيس الجميلة التي عاشها معها, فتأتيه يعتصران من أجله

- لم أكن أعرف أن أبي يحب ياسمين لتلك الدرجة, أنه ينتهي أمام أعيننا ونحن عاجزين عن انقاذه, وما يعذبني أنني السبب

ربتت عادة على كتف غيداء بحب

- ما حدث حدث, لا تلومي نفسك, الأهم ما الذي يمكن أن نفعله من أجله

اغرورقت عيني عادة بالدموع

- نبحت عنها؟

أخرجت عادة زفير عميق وهي تقول

- لقد بحثت عنها في كل مكان يمكن وجودها فيه, الكلية, النقابة, ورش المصوغات, بلا أدنى فائدة

- هل بحثت عنها من أجل أبي؟

- لا يا غيداء بل من أجلها, هي وحيدة وصامتة وحزينة, أي حياة تلك!!

مسحت غيداء دموعها بكفيها وهي تقول

- لم أفسح لنفسي المجال لمعرفة, حتى أنني لم أرى وجهها, كنت أكرهها وعلقت فساد حياتنا على ظهورها, هكذا غدت أمني أفكار

هزت عادة كتفيها

- طلاقهما لم يكن بسبب ظهورها, هل هي من أمرت أمنا بكَراهية عائلة أبانا, هل هي من أجرت الطمع في قلبها لتزور وتدلس وتأتي لأبانا بأخ غير شرعي, ياسمين كانت فقط الممر الذي فُتح أمام أبانا لينقذه من طريق أمنا المسدود

- عندك حق, لكنني اشتقت لمامي وأريد رؤيتها, الشهور تمر وهي بعيدة, ما رأيك أن نزورها على غفلة منها



- نحن نحدثها يوميًا، لكنها منذ زواجها لم تطلب منا ولو لمرة واحدة رؤيتنا، وعندما نطلب تتهرب، يمكننا أن نراها في النادي

أسندت غيداء وجهها بكفها وقالت

- لم تعد تذهب هناك، سألت صديقاتها عنها فقالوا أنها مختفية منذ زواجها  
فكرت عادة

- أخشى أن تكون مريضة، هل تعرفين عنوانها

أجابت غيداء بالموافقة

- سنذهب لوداع محمد اليوم ثم نذهب لأمي غدًا في الصباح، لكن لا  
تذكرني ذلك أمام أحد

\*\*\*\*\*

هل حان موعد الفراق، هل ستكتوي بفراقه عقابًا لما فعله بخاله، دنيا تقف  
باكية حزينة أمام ابنها الذي أعد العدة للرحيل، أوراقه قُبلت في منحة  
دراسية للدكتورة، جنات تربت على كتفها مواسية، سماح تحاول أن  
تطمئنهما وتحفزها لم سيناله من درجات علمية، والحاج جلال يقاوم ضعفه  
كما اعتاد ليقويها

- كفافي، سيعود وستفرحين بنجاحه

هزت رأسها بضعف وهي تمسح دموعها في جلبابها

- محمد ابن عمري، لم يكن ابني بقدر ما كان أخي وحببي، كيف ستشرق  
الشمس دون وجهه، كيف سيحل الظلام دون غطيظ نومه، كيف سيحلو  
كوب الشاي في شرفتي بدونه

ثم انهارت في بكاء كالأنهار يعلم الله وحده متى سيتوقف في قلبها، ربت  
عماد على رأسها وقبل جبينها ودموعها تكويه

- وأنا!! أأست ابنك البكر؟ اتركه يرسم مستقبله كما أراد

ألقت رأسها في صدره

- أشعر أن الفراق ما هو إلا عقاب لم فعلناه بك

امتعض عماد

- وما الذي فعلتموه بي؟ ما هذا الهراء يا دنيا, محمد رجل واضح ونقي,  
أنا من فتحت له باب الاقتراب فأغلق في وجهه ووجهي, أنا المخطئ

شد محمد على كتف خاله

- كل ما أتمناه أن تسامحني قبل رحيلي

- أسامحك, وراض عنك تمام الرضى, ارفع رأسنا كما اعتدنا منك

الجميع برفقة محمد لتوصيله إلى المطار, الهواء يلفح وجه غيداء وينفض  
أتربة أفكار مريم التي ملأت بها قلبها, حدثت نفسها

- تلك هي العائلة التي كانت تتخايل عليها أمي!! يربتون على القلوب  
بكفوف دافئة, يمسحون الوجنات بأصابع حانية, يرفعون من يسقط في بئر  
الأحزان بأيادي قوية, أين لها بمثلها!!

مرت ساعات الليل على دنيا كالزلال الذي شق جسدها جزأين, نصف هنا  
ونصف هناك, تتجرع مرارة الفراق, تزفر بحرقة على الغائبان, محمد  
وياسمين.

\*\*\*\*\*

انطلقت عادة وغيداء في الصباح حيث تقيم أمهما, دق الجرس وانتظرتا  
طويلاً حتى فُتح, لتطل عليهما مريم بشكل غريب, انزعجت الفتاتان  
وصرختا في ذات الوقت

- ماذا حدث؟ لماذا تبكين؟

تململت مريم في ثوبها, وحاولت جاهدة أن تتمالك ذاتها

- لاشئ, ما الذي جاء بكما؟ هل أصاب أباكم أذى

أسرعت عادة

- لا, أبي بخير حال, اشتقنا إليك فأردنا رؤيتك, لكن يبدو أننا جننا في الوقت المناسب

نكست مريم رأسها

- كان أفضل أن تخبراني ل.....

لم تكمل مريم كلامها إلا وظهر د سالم ينفث دخان سيجارة بغیظ واستفزاز

- ما الذي جاء ببناتك إلى هنا؟

ارتعد جسد مريم خوفاً قبل أن تقول

- بناتي وأردن رؤيتي

ارتفع صوته

- لكني أمرتك!! لا خروج,, لا زيارات من أي نوع

لاحظت غيذاء خوف أمها الشديد من هذا الرجل

- نحن من أردنا رؤيتها, اعتقد أنه من حقنا زيارة مامي في بيتها

زاد ارتفاع صوت د سالم وقال وهو يهز كتفيه بضحكة متعكمة

- زيارة مامي في بيتها!! لكن هذا ليس بيت مامي.... ثم صرخ في

وجوههم , هذا بيتي وعلى من يدخله الاستئذان مني أولاً

عقدت عادة حاجبيها وقالت بجرأة

- وكيف لنا برؤيتها وأنت كما تقول منعته من الخروج؟

ازداد غيظه

- عندما أريد أنا فقط, والآن اسحبي أختك وإلى الخارج حالاً

ظهرت دموع مريم التي قاومت حبسها

- كيف لك أن تطرد بناتي, لقد تحملت الكثير على مدار عام حتى لا يشمت في أحد, لكن إلى هنا وك.....

لم تكمل مريم كلمتها إلا وتهجم عليها أمام ناظري فتاتيها وأمسكها من ذراعها بقوة ثم ألقى بها على الأريكة التي خلفها وبدأ في ضربها, أسرعت الفتاتان بفتح الباب والصراخ فتجمع الجيران من الشقق المجاورة ليشاهدوه وهو يضربها فخلصوها من بين يديه, نزلت مريم بصحبة ابنتيها بسرعة بمساعدة الجيران, بينما خاف د سالم من استدعاء أحدهم للشرطة فطرد الجميع وأغلق بابه.

لم يكن أمامهما إلا اصطحابها معهما إلى بيت أبيهما بالأزهر, مريم في انهيار تام وغادة وغيداء يواسينها بمرارة

- كيف يصل بك الحال إلى هذا الوضع يا أمي دون اللجوء لأحد, كيف تمتد يده لضربك طيلة عام من الصمت

- لقد أخطأت خطأ لن يمحوه ندم, حاولت طوال العام التخلص منه لكني لم أستطع, أيام وشهور فذل ومهانة وسجن  
أسرعت غيداء

- يجب أن يطلقك

رفعت مريم عينيها لتواجه أعين فتاتيها

- حاولت بمفردي وفي كل مرة كانت يده تنهال علي بالضرب, وليس لي الرجل الذي يقف لمثله

اشعل الغضب عيني غادة وهي تقول

- أبي, لا بد من تدخله وإنقاذك, لا يمكن أن يتركك هكذا, أبي لن يرضيه ما يحدث

وما أن سمعت مريم اسم عماد حتى اجهشت في بكاء شديد, أين هي من عماد ورجولته, أين لها بالحياة المترفة التي عاشتها معه!! لم يرفض لها

فيها طلبًا، كان الأب والأخ والزوج، اجتمعت نعم الدنيا في رجل لكنها لم تعي الهبة إلا بعد فقدانها، لم يحظ منها إلا بالتعالي والتكبر والخذلان والجفاف عليه وعلى عائلته، ليته ما خسرتة، عضت مريم علي يدها بينما كان باب البيت يُفتح، اعتلت الدهشة وجهه عند رؤيتها، آخر ما يتمناه الآن!!

- ما الأمر؟

اندفعت الفتاتان في سرد ما حدث لأهم من ذلك الوغد الذي تزوجته، ومريم لا تقوى على النظر إليه خجلاً منه، ارتفع صوته بغضب

- يضربها!! ثم صمت لحظات ليكمل

- ما الذي تريدينه يا مريم؟

جسدها ينتفض وهي تنتظر إليه بضعف

- الطلاق يا عماد، لا غيره، لا غيره

ثم راحت في بكاء لم يأت من عينها كما كان في الماضي، بل جاء من اعتصار قلبها وروحها معاً

هز رأسه بهدوء ووجه كلماته لغادة

- سأترك لكم البيت حتى نحل الأمر، لا تتركها بمفردها... ثم عاد مؤكداً

- ولا تخبرا عمتيكما بما حدث، أبعلا الأمر سري في نطاقنا فقط

أسرعت غادة

- لماذا يا أبي؟

اندهش عماد

- هذا أمر لا يخصهما، تلك حياة والدتك الخاصة وأنا أثق أنها لا تحب أن تكون حياتها مشاعاً لأحد، ذلك حقها

خرج عماد تاركا نظرات غادة وغيداء تنهش في لحم مريم

جففت مريم دموعها ونظرت لهما بأسى

- أعرف ما يدور بخلدكما, لقد ظلمته وعذبتة وتناولت عليه وعلى أهله,  
وبالرغم من كل هذا لم أجد في النهاية ظهراً أستند عليه إلا ظهره, أنا أدفع  
الثمن من كرامتي وندمي لكن بعد فوات الوقت

انفردت غيداء بغادة في حجرتهما لتقول

- هل يمكن أن يعود أبي لأمي؟ شعرت بهذا من غضبه لها وسعيه في  
طلاقها

هزت غادة رأسها

- أبي لا يساندها من أجلها بل من أجلنا, لقد قطعت أمنا كل الخيوط  
الموصلة إليه, وخصوصاً بزواجها, لقد أفلتت آخر خيط كان يربطهما

لم تتوقع مريم تلك السرعة المذهلة, فلم ينقضي اليوم إلا وكان عماد في  
البيت بصحبة د سالم والمأذون, امتدت يد عماد لها بورقة طالباً توقيعها,  
طلب المأذون من سالم إلقاء لفظ الطلاق فتفوه به, وبعد توقيعها على وثيقة  
الطلاق أشار لها بالدخول هي والفتاتان للداخل, كان الطلاق صامئاً بشكل  
لم تتوقعه إحداهن, وبعد رحيل الجميع خرجت مريم

- كيف فعلتها بتلك السرعة والهدوء؟

هز رأسه بامتعاض

- كيف؟ بمائتي ألف جنية!! الرجل صائد سيدات ثريات, يتزوجهن ليعذبهن  
ثم يفتدين أنفسهن, أتمنى أن تحذري قبل أن تضعي قدمك مرة أخرى في  
أي موضع

ارتبكت مريم

- لكنه مبلغ كبير, لماذا دفعته؟

- لأنك أم بناتي, لن يسيئهما الأزهر بقدر ما سيسيئهما وضع أمهما... تنهد  
تنهيدة ثقيلة ليضيف

- عادة, ستقتسمان الأسبوع بيني وبين أمكما كيفما تشاءان, رتباها بحيث  
لا تبقى أمكما وحيدة, وسيصلك يا مريم مصروف شهري لن يضعك دون  
مستواك

\*\*\*\*\*

هل يمكن أن تطول ليلة لتصبح عمرًا بأكمله, لقد أحصيت تلك الليلة  
بالتواني!! مريم تعض أصابع الندم على تفريطها في ذلك الرجل النادر  
الذي لم تعرف قيمته الا عندما فقدته, بينما يلتهم الخجل روح غيداء على  
ما فعلته به, بينما عماد لا يفكر إلا في الشقاء الممتاع على قلب عادة  
وغيداء, فتش في قلبه عن إنسان يمكنه الحديث معه, لم يبرق في عينيه  
وذنه إلا طيفه, وجده أمامه يبتسم

- صباح الخير يا حاج جلال

- أهلا بك يا عماد, أكاد لا أصدق عيني, لك عمر لم تطأ المحل

استجمع عماد حزنه واستدعي ابتسامة باهتة

- جئتكم بحملي, ألقه على مرمى البصر منا لنقرر معًا ما يكون

يعي الحاج جلال ما أجهد قلب عماد في السنوات الأخيرة, حمله مع الأيام  
يزداد ثقلًا, ربت على كتفه

- أنت وتد لن تقتلع خيمتك رياح مهما كانت عاصفة, ماذا حدث؟

قص عليه عماد كل ما كان, تعجب الحاج جلال

- هل تريد أن تعيد مريم إلى عصمتك؟

هز عماد رأسه نافيًا

- لا , وألف لا , وإلى نهاية عمري لا , لكن ما حدث قد يجعل غيداء تعيد إلحاحها وتهورها , أخشى خسارتها

- لا يا عماد , غيداء وعت الدرس , هل تعرف لو ناقشتها اليوم ستكتشف أنها نادمة على وقوفها كحجر عثر في وجه سعادتك ... صمت قليلاً ليقول

- هل تعرف يا عماد في ما كنت أفكر؟

- ما الذي كنت تفكر فيه؟

- تعبت القلوب من الفراق والألم , ما رأيك أن نعقد قران عادة وعمر ونسعد بهما

ابتسم عماد وأنارت عينيه بضياء الحب

- تعرف , الك فكرة جميلة , كلنا نحتاج الفرحة , وهي لن تأتي يجب أن ننتزعها نحن من الحياة , جنئك مؤرقاً ففتحت أمام قلبي للسعادة باب

الخجل يعقد وجه عادة وعماد يخبرها هي وعمر ما الذي اتفقا عليه هو والحلج جلال , دنيا أسرعت وأطلقت زغرودة محملة بدموع الشوق لمحمد , اقتربت غيداء من أبيها

- سامحني يا دادي , لو استطعت الوصول لياسمين لكنت أول المهنئين

ثم راحت في بكاء لم يخرجها منه إلا لمسة كفه على شعرها الطويل المسترسل في نعومة

- كل ما يحدث قدر لقدر , إياك أن تلومي نفسك

ثم احتواها في حضنه الواسع ليرتفع صوت جنات بزغرودة مدوية أجرت الضحكة على شفاه الجميع .

الحفل نظمته غيداء حباً في أختها , سيتم عقد القران في بيت العائلة ليتسع للمدعوين , ثم تتوجه العائلة إلى فندق المريديان ليتناولوا العشاء جميعاً ابتهاجاً بالعروسين , الزغاريد تعلو في بين العائلة بعد عقد القران , التهنئات تتناثر هنا وهناك بينما عماد يقف أمام صورة والده يبتسم له بحب



- تزوج الليلة حفيدك عادة وعمر, رحمك الله يا أبي

تلك الدموع المختنقة بصدرة والتي لم تستطع جفونه حزمها لا يعرف من أين هاجت, هل هو الفرح أم الاختناق بالفراق؟

ربت دنيا وسماح على كتفيه فاحتضنهما في حنان

- لولاكما في حياتي لما أنارت جنباتها المظلمة

ياسمين في سيارة أجرة تشير للسائق وتستحثه على الإسراع, لقد اقترب موعد افتتاح معرضها الأول للمشغولات الفضية والنحاسية المُقام في قاعة بذات الفندق الذي سيشهد اجتماع العائلة, لقد تعبت كثيراً وسهرت الليالي للانطلاق بهذا الحدث, الجميع شجعها بدءاً من اساتذتها حتى إدارة الفندق لما رأته من روعة انتاجها الذي سيبهل السائحين, تريد أن يحرك جسدها العربية حدثت نفسها بحزن

- ما هي إلا دقائق وسيفتح أمام وجهي حلم عمري لمعرضي الأول, كم كنت أتمنى لو كان معي!!

تنهدت تنهيدة قد يحملها له النسيم لقربها, بينما عماد في سيارته يهم بالخروج بعد نزول غيداء وغادة وعمر, رن هاتفه الجوال, نظر فيه ليعرف من المتصل, لو تأخر عماد تلك الدقائق ليتلقى تلك المكالمات سيتقابل وياسمين أمام باب الفندق, فهل سيجيب؟؟.

تمت

عفاف سعيد

